Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أدب صدر الإسلام

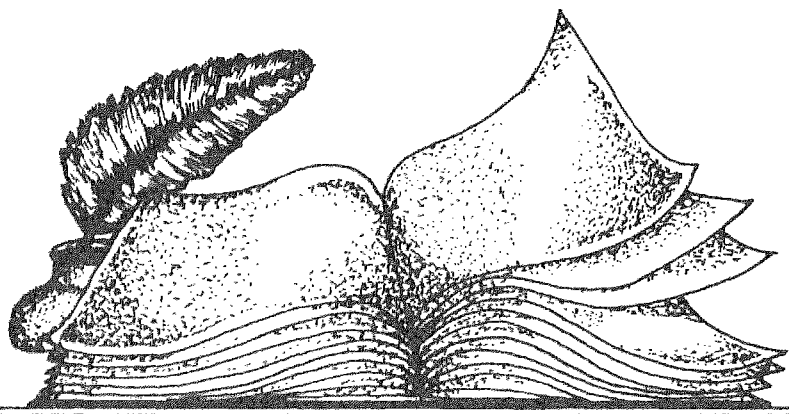

الدكتور واضح الصمد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أدب صدر الإسلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدكتور واضح الصمد

الجامعة اللبنانية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الفرع الثالث

أدب صدر الإسلام

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأُولى

1414 هـ ـ 1994 م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام

هاتف : 802428 -802407- 802296

ص. ب : 113/6311 ـ بيروت ـ لبنان

تلكس : 21665 LE M.A.J.D -20680

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأهداء

إلى روح والديّ الكريمين

﴿ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾

د. واضح الصمد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

تبدلت أوضاع الحياة العربية بعد الاسلام تبدّلاً ملموساً، في المظهر والجوهر، والسلوك والمُثُل. فقد حمل العرب أعباء رسالة جديدة مجيدة، فانطلقوا يؤدونها في صبر واستجابة مُتّشحة بما تستلزمه هذ الرسالة من دروع واقية، وحلل برّاقة، وأسلحة جديدة.

أجل كان عصر صدر الإسلام من أخطر العصور التي مرّ بها العرب عبر تاريخهم الطويل، لذلك كانت دراسة هذا العصر دراسة دقيقة ووافية، من الضرورة بمكان، نظراً لما تمثله تلك المرحلة من خطر، وما اضطربت به من أحداث بعيدة الأثر،فكان فيها أخطر ثورة في تاريخ الإنسانية، وأخطر صراع بين القيم الإنسانية الحقّة الخالصة التي جاء بها الإسلام، وبين القيم الفاسدة التي تكوّنت خلال العصور السابقة المتطاولة.

وطبيعي أن يكون لهذا الصراع أثره في الأدب، فكان من الضروري استجلاء غوامضه، وكشف مساتيره ليتبيّن لنا عناصر هذا الصراع وبالتالي جلاء الصدأ الذي تراكم على بعض جوانب أدب العصر، ثم البحث ما أمكن عمّا ضاع منه، وعمّا تعرّض منه لأسباب الزّيف، حتى نتمكن من بلوغ الغاية التي ننشدها وهي التعرف على حقيقة أدب عصر صدر الإسلام.

لقد نالت هذه الفترة من العناية والدرس والنقد والتحليل الشيء الكثير، وذلك منذ فجر التاريخ الإسلامي، على يَدِ أبناء هذه الأمة العربية المسلمة، وقد تساندت الدراسات وتشعبت، فقام بذلك عرب ومستعربون، مسلمون وغير مسلمين، أنصار الإسلام وأعداؤه، وما زالت الدراسات مستمرة.

لذلك ليس باستطاعة أحد القول إنّه فتح فتحاً جديداً في هذا المضمار، وما عملي هذا سوى لبنة صغيرة أسعى لإضافتها إلى بناء ذلك الصرح العظيم،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقد بذلت في هذا السبيل جهداً صادقاً، آملاً أن يكون هذا الكتاب عوناً لطلابنا في الجامعات يساعدهم على توضيح المعالم الأدبية لعصر صدر الإسلام.

وإني لأرجو أن يكون هذا العمل الجامعي فاتحة أعمال مجيدة مرجوّة في ميادين الأدب العربي والفكر الإسلامي، تتضافر فيها الجهود لتضيء للعرب والمسلمين عصراً من أزهى عصور الأدب، وأكرمها جميعاً، ذلك العصر الذي كَرُمَ بظهور الدعوة الإسلامية وزها بسيرة الرسول الكريم وصحابته المؤمنين.

وقد حاولت في هذه العُجالة أن ألتزم، ما أمكن، بالمناهج التعليمية المقرّرة في الجامعة اللبنانية، لأسهّل على طلابنا سبيل الفهم والبحث في نطاق أدب صدر الإسلام (أي عصر النبوّة والخلفاء الراشدين)، ذلك الأدب الذي كان الاسلام هو الموجّه له لبناء الشخصية الاسلامية الانسانية السامية.

لذلك كان لا بدَّ من الإطلالة على الأدب الجاهلي وبالتالي متابعة الأدب الإسلامي، مبيّناً الأثر الإسلامي فيه.

ولكي تكون الدراسة وافية، كان لا بدّ من التعرّف على مهد الإسلام، أي البيئة التي عاش فيها الرسول ﷺ، والبعثة النبويّة والقرآن الكريم والحديث الشريف.

ثم عرضت في الأبواب التالية لمكانة الشعر في الجاهلية ومكانته في الإسلام ومظاهره وأغراضه، وكذلك النثر، حيث كان التركيز أكثر على الخطابة والكتابة. ثم اخترت بعضاً من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وأخيراً اخترت شخصيتين مميّزتين للعصر هما كعب بن زهير والخنساء.

وبعد، فإن أصبت في عملي هذا، فذاك فضل من الله، وإن تعثرت فإنّ لي أجر المجتهد. والله من وراء القصد، نعم المولى ونعم النصير.

الدكتور واضح الصمد

الجامعة اللبنانية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

أدب صدر الإسلام

أ ــ تعريف لفظ الأدب وبعض مدلولاته من الجاهلية حتى عصر النهضة

الأدب كلمة تغيّر مفهومها ومعناها، شأنها شأن الكثير من الألفاظ المفردة، التي كثيراً ما يطرأ عليها من التغيّر والانتقال من معنىً إلى آخر حسبما يقتضيه تغيّر أحوال الأمة الاجتماعية والعقلية والسياسية، والتقدم أو التقهقر في الصنائع والعلوم.

فما هي تلك التغييرات التي طرأت على معنى لفظ «الأدب»، وما مدى الانحراف عن المعنى الأصلي وذلك انطلاقاً من العصر الجاهلي ومروراً بالعصور التالية؟

لقد عرف الجاهليون لفظ «الآدِبْ» أي الداعي إلى المأدبة (أي الطعام) فقد ورد في شعر طرفة بن العبد قوله:

نحن في المَشْتاةِ ندعو الجَفَلى لا تَرى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ[1]

فهو يقول نحن في فصل الشتاء، حيث القِلّة والقرّ وانبرد، ندعو عامة الناس إلى الطعام، وإن الآدب فينا لا يدعو إلى طعامه نفر منتخب من الناس، من عليّة القوم أو الوجهاء، وهو هنا يفتخر بكرمه وكرم قومه.

وعرف العرب في الجاهلية من معاني الأدب أنه الخلق المهذب، والطبع القويم والمعاملة الكريمة للناس وحثّهم على المحامد ونهيهم عن المقابح، فقد

(1) ديوان طرفة بن العبد ـ المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت. ص /55/.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذكر صاحب «الأمالي» أن هنداً قالت لأبيها عُتبة بن ربيعة: «إنّي إمرأة قد ملكت أمري فلا تزوّجني رجلاً حتى تعرضه عليّ». قال: «لكِ ذاكَ». فقال لها ذات يوم: إنه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمّياً لك واحداً منهما حتى أَصِفَهُ لك، أما الأول:... وأما الآخر: ففي الحسب الحسيب... يؤدِّب أهلَه ولا يؤدّبُونَه...». فقالت:... وأما الآخر فبعل الحرّة الكريمة.. وإني له لموافقة، وإنّي لآخُذُهُ بأدب البَعْلى...»[1] فزوّجها إياه وهو أبو سفيان بن حرب، وقد أنجبت منه معاوية وغيره. وواضح من هذا النص أنه ذو خلق نبيل، وأنه يأخذ أسرته باتباع هذا الخلق، وفي ردِّ هندٍ ما يدلُّ على هذا المعنى أيضاً إذ تقول: إني سأعامله بالخلق الكريم الذي ينبغي أن يعامل به الزوج.

أما في العصر الاسلامي فنلاحظ أن كلمة أدب، لم ترد في القرآن الكريم، على الرغم من خفتها، وعلى الرغم من ورود أكثر من آية في معناها، وشدة اتصالها بأغراضه وموضوعاته.

ثم نلاحظ أن النصوص المنسوبة إلى الرسول ﷺ وصحابته كثيرة، تعدّد فيها معنى كلمة «أدب» كما تنوعت مادتها. منها ما رُوي أن عليّاً رضي الله عنه قال للرسول عليه السلام: «يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره». فقال الرّسول: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي، وربّيت في بني سعْد»[2]. وهنا المقصود التثقيف والتعليم، أي علمني أو ثقّفني ربّي فأحسن تثقيفي وأضاف الرسول أنه رُبِّيَ في بني سعد، حيث أخذ عنهم اللغة العربية السليمة.

وعن ابن مسعود أن الرسول ﷺ قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض فتعلّموا من مأدبته، يعني مدعاته»[3]. فالقرآن يجمع الآداب التي يدعو الله تعالى عباده إليها من خلق كريم، ومواعظ نافعة وكل ما يتصل بمعنى التهذيب النفسي، ويمكن تأويل الحديث أن الرسول شبّه القرآن بصنيع صنعه الله للناس

---

(1) كتاب الأمالي ـ أبو علي القالي 104/2 دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(2) أصول النقد الأدبي ـ أحمد الشايب ص/4/مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة السابعة 1964.

(3) لسان العرب ـ ابن منظور ـ مادة أدب ص /206/.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لهم فيه خيرٌ ومنافعُ ثم دعاهم إليه.

وفي حديث عليّ، كرّم الله وجهه: «أمّا إخواننا بنو أميّة فقادة أَدَبَةٌ». وكلمة أدبة هنا جمع آدِب ككاتب وكَتَبَة، وهو الداعي إلى المأدبة، وهي الطعام الذي يصنعه الرجل يدعو إليه الناس»[1].

فلما كان العصر الأموي شاع استعمال كلمة «أدب» وتعددت مشتقاتها، وتمايزت معانيها، وأصبحت عنواناً على الوسيلة الفذة للتربية والتعليم، ونشأ عن ذلك مهنة لجماعة من المدرّسين الممتازين الذين ينشئون الطبقة العالية وينهضون بتعليم أبناء الخلفاء والأمراء، وكانوا يسمون «المؤدبين».

والنصوص المرفوعة إلى هذا العصر ناطقة بذلك كله، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما جاء في خطبة زياد بن أبي سفيان بالبصرة وهي المسماة بالبتراء، قوله: «...فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا...»[2].

وواضح أن المادة هنا مستعملة في معنى الصلاح والتهذيب المتصل بالخلق والسلوك الحسن.

وذكر صاحب كتاب نقد النثر أن عبد الملك بن مروان قال لمؤدب ولده في وصيته إياه: «وعلِّمهم الشعر يمجُدُوا وينجُدُوا»[3] والمؤدِّب هنا يقصد به المعلِّم والمثقِّف.

وذُكر في عيون الأخبار: قال عمر بن عبد العزيز (أحد الخلفاء الأمويين المشهورين) لمؤدبه: كيف كانت طاعتي إياك وأنت تؤدبني؟ قال: أحسن طاعة، قال: فأطعني الآن كما كنت أطيعك، خذ من شاربك حتى تبدوَ شفتاك، ومن ثوبك حتى يبدوَ عِقباك[4].

---

(1) المرجع السابق.

(2) البيان والتبيين ـ الجاحظ 244/1 تحقيق فوزي عطوي ـ دار صعب ـ بيروت.

(3) نقد النثر ـ مقدامة بن جعفر ص 81 ـ الكتبة العلمية ـ بيروت 1980.

(4) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ـ 301/1 نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية. الكامل للمجرد 214/1 مكتبة المعارف ـ بيروت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعليه يمكننا القول إن هؤلاء المؤدِّبين كانوا يدرّسون الشعر لتلاميذهم وما يتصل به من أيام العرب وأخبارهم وأمثالهم، شرحاً له وتوسعة لمعارفهم، وبذلك يتم تمرينهم على الفضائل الاجتماعية من حلم وشجاعة وكرم وصدق وذلك لاكتساب الأخلاق الحميدة والسيرة الفاضلة في الناس، وهذا هو المنحى التهذيبي، وأما القيام على رواية الشعر والنثر وما يتصل بهما من معارف تزيد العقل نوراً، والذوق صفاءً، فإن ذلك يزيد من ثقافة التلاميذ، ويهذب لغتهم، ويغني ملكاتهم بالمفردات وحسن الصياغة، وهذا هو المنحى التعليمي.

لذلك يمكننا القول: إن كلمة «الأدب» صارت تدل منذ العصر الأموي على المعنى التهذيبي والتعليمي، أما في العصر العباسي فإننا نلاحظ أن كلمة أدب أصبحت تستعمل في مجالات شتى وأصبح المراد بها معرفة واتقان القوانين الضرورية لكل نوع من المعارف فهناك: أدب الكاتب، ويعني الالمام بكل ما لا غنى عنه لكل كاتب ماهر من العلوم اللغوية[1].

ودوّن الإمام الغزالي المتوفّى سنة 505هـ. في كتاب إحياء علوم الدين: آداب الأكل، وآداب النكاح، وآداب الكسب وآداب الألفة.. وآداب السفر وآداب السماع.. وغير ذلك مما يطول ذكره. وألّف ابن الطقطقي كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية[2]. حتى أنه ليخيّل إلينا أنّ غاية التربية والتهذيب والأدب آنذاك كانت في الوصول إلى الأناقة في كل شيء وفعلٍ والتفنّن في جميع المعارف وعند بعض طبقات الناس كانت في الظّرف في اللّبس والتصرّف ورشاقة الكلام ورقة المعاني وحسن الاستئناس.

وعليه يمكننا القول إن كلمة أدب أخذت طريقها في اتجاهين: الأول يطابق ميول المتظرفين وفيه ما تستلذ به النفوس والعقول من مجالس الظرف ورواية الأمثال والحكايات والتحدث بالملح والنوادر والأخبار وتذاكر القصص والأشعار وذلك مع كراهة كلّ إطنابٍ مملٍّ.

---

(1) أنظر أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى حوالي 276 هـ.

(2) تاريخ الآداب العربية ـ كارلو نالينو ص 37 تقديم طه حسين ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر 1970.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأما الاتجاه الثاني فهو عند قوم فضلوا صناعة الشعر والإنشاء البليغ ودقائق اللغة فاصطلحوا بلفظ الأدب على جميع الفنون الكتابية، ولفظ الأديب على من يحسن العربية ويتعاطى صناعتي النظم والنثر.

فلما كان القرن الرابع الهجري كانت العلوم اللغوية مستقلة منفصلة عن الأدب وبقي النقد متصلاً به، وفي القرن الخامس وقف الأدب عند الشعر والنثر الممتازين، وفريق ذهب في القرن السادس وما يتلوه إلى أن الأدب علم الصرف والنحو واللغة والبيان[1].

ومن المحاولات التي قام بها العرب لتحديد معنى الأدب تلك التي قام بها عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته، إذ قال تحت عنوان: علم الأدب:

«.. المقصود منه عند أهل اللسان ثمرتُه وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب مَا عساه تحصُل به الكلمة من شعر عالي الطبقة وسجعٍ متساوٍ في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو.. مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم بها ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة... ثم إذا أرادوا حدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث..»[2].

يبدو من كلام ابن خلدون أنه يخلط بين الأدب والتأدب، وأنه لا يفرق بين العلم والفن، والراجح أن العرب قبل عصرنا الحديث لم يفرقوا بين مدلول العلم ومدلول الفن.

ثم إن الخلفاء في العصر الإسلامي والعصور التالية كانوا يشجعون الأدب والأدباء ويغدقون عليهم من الأموال والعطايا، تقرباً منهم وطمعاً في مديح

---

(1) تاريخ الآداب العربية ـ كارلو نالينوص 52 ـ تقديم طه حسين ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية 1970.

(2) مقدمة ابن خلدون ص 553 ـ الطبعة الرابعة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شعرائهم، لذلك نرى أن الأدب العربي مرّ بأفضل عصور ازدهاره وخصوبته حين احتضنته الطبقة الحاكمة لأنها تجد فيه لذة أو تتخذه أداة للدعاية لها بين جماهير الشعب.

ثم لما ضعفت السلطة المركزية وانقسمت الدولة إلى دويلات متنافسة، وتعرض المشرق العربي لغزو التتار وبالتالي للغزو العثماني، وسيطرة العثمانيين على البلاد العربية ما يزيد على خمسة قرون، أصبح هناك هوة سحيقة بين طبقة حاكمة جاهدة على جمع الأموال بأية وسيلة ممكنة، وطبقة شعبية كادحة فقيرة عاجزة عن تأمين قوتها، لقد دُمِّرت مصادر الثروة في البلاد واستغلّت أسوأ استغلال.

في ظل هذا الواقع انحسر الأدب وغاب الأدباء وأقفلت المدارس وفشت الأمية بين الجماهير، وكانت محصلة ذلك، فَقْد الأدب الفصيح كلّ دوافع وجوده، فلم يجد الأديب طبقة حاكمة تغدق عليه الأموال، ولا طبقة جماهيرية تحتضنه، ففقد الشعر وظيفته في العصر التركي وتحول إلى أداة للتسلية تعمد إلى الألغاز، وحين فقد الأدب وظيفته بالنسبة إلى جماهير الشعب كان من الطبيعي أن يحلّ محلّه الأدب الشعبي الشفهي الذي يتلاءم مع أميّة الجماهير، وسادت الأغنية الشعبية والموّال بديلاً عن القصيدة الغنائية، وحلّت الحكاية بديلاً عن القصة، والسيرة بديلاً عن فن الرواية.

وما أن انتهى الحكم العثماني حتى دخل الأوروبيّون الساحة العربية، وحينها أخذ العلم ينمو تدريجياً بين أفراد الشعب وأخذت الثقافة الأجنبية تغزو البلاد العربية ونتج عن ذلك تمازج ثقافي عربي ـ أجنبي، وانتشرت المطابع وكثرت الصحف والمجلاّت ونشطت حركة الترجمة والتأليف، وكثر المستشرقون والمنقبون في كتب التراث، وتجلّت الحركة الأدبية بأثواب جديدة، وطرد الاستعمار من البلاد، وأصبح عندنا ما نسميه بأدب عصر النهضة حيث بدأ الصراع الأدبي يأخذ أبعاده بين تيارات مختلفة منها: التقليديين والتجديديين، ولم يزل هناك شيء من الصراع حتى يومنا هذا.

يبدو لنا مما تقدم أن العرب عرفوا الأدب كما يلي:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أ ـ بمعنى الخلق الكريم والدعوة إلى مأدبة في العصر الجاهلي.

ب ـ ثم استخدم بمعنى الثقافة والعلم في أول الإسلام.

ج ـ واقتصر على ما يلقيه المؤدبون من شعر ونثر وما يرتبط بهما من أخبار وأنساب وشرح في العصر الأموي.

د ـ وفي العصر العباسي شمل الثقافة العربية كلها بل والأجنبية أيضاً.

هـ ـ ثم عاد إلى الضيق فوقف عند حدود العربية وحدها في عصر الانحطاط.

و ـ وأخيراً استقرّ في حدود الشعر والنثر وهو المعنى الذي نعرفه للأدب في عصرنا الحاضر.

وهكذا نرى مدلول كلمة (أدب) يتسع ويضيق تبعاً لاختلاف الظروف الاجتماعية والعقلية والسياسية، وكذلك اختلاف العصور، فنجده حيناً يتسع فيشمل كل ألوان المعرفة، ويضيق حيناً آخر فيقف عند الكلام الجيد من مأثور الشعر والنثر وما يتصل بهما.

على هذا الأساس نلاحظ أن لكلمة (أدب) معنيين: المعنى العام وهو كل ما أنتجه العقل من أنواع المعرفة حتى الطبيعة والنحو، سواء أثار شعورك وأحدث في نفسك لذة فنيّة أو لم يثر ولم يحدث. والمعنى الخاص وهو الكلام الجيد من الشعر أو النثر الذي يثير شعور القارىء أو السامع ويحدث في نفسه لذة فنيّة، إنه التعبير الجميل عن معاني الحياة وصورها، هو مأثور الشعر الجميل أو النثر البليغ، المؤثّر في النفس، المثير للعواطف، هذا الأدب بالمعنى الخاص هو ما سنعنى بدراسته في الفصول التالية.

ب ـ لمحة في الأدب الجاهلي

درج جمهور الباحثين في الأدب ـ قديماً وحديثاً ـ على تسمية أدب العصر الذي يسبق الإسلام، بالأدب الجاهلي، ووصفوا أصحاب هذا الأدب بالجاهليين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويجب أن نشير إلى أن الباحثين في الأدب الجاهلي لا يتسعون في الزمن به كل الاتساع، إذ لا يتغلغلون به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية، وهي الفترة التي جاءنا عنها الشعر الجاهلي. قال الجاحظ: «وأما الشعر فحديث الميلاد، صغير السنّ، أوّلُ من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه: امرؤُ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له ـ إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام»[1].

هذا التحديد الذي وضعه الجاحظ فيه شيء من الدقّة لأن الشعر العربي في الحقبة التي تسبق هذا التحديد مجهول ولا نعرف عنه شيئاً، والبعض يسمّون تلك الفترة المجهولة بالجاهلية الأولى.

وقد حصلت عدة اجتهادات في تفسير كلمة «الجاهلية» والأسباب التي من أجلها سمّي ذاك العصر بالعصر الجاهلي، فقيل: إن الجهل نقيض العلم، وبما أن العرب في تلك الفترة كانوا بمجملهم أميّين لذلك سمّي عصرهم بالعصر الجاهلي. وقيل بل لأنهم كانوا يجهلون عبادة الله الحقّة وشرائعه التي جاء بها النبي ﷺ. وهذا الجهل كان يدفعهم للمفاخرة بالأنساب وعندهم من الكِبْر والتجبّر وغير ذلك[2].

هذه الكلمة وردت في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية، ومن الأمثلة على ذلك:

قال عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[3]

وكأنه يحذّر من تسول له نفسه بالطيش والحمق والاعتداء عليه وعلى

---

(1) الحيوان ـ للجاحظ 74/1 تحقيق وشرح عبد السلام هارون ـ منشورات المجمع العلمي الإسلامي ـ بيروت.

(2) لسان العرب ـ ابن منظور ـ مادة جهل 11 /130.

(3) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ـ الأنباري الطبعة الثانية 1969 ص 426 ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبيلته بأنه سيقابَل بما هو أشد وأعنف وسيلاقي الهلاك والعقاب العظيم.

وفي القرآن الكريم وردت لفظة: تجهلون أربع مرات، ولفظة يجهلون مرة واحدة، وكلمة الجاهل مرة واحدة، وجاهلون ثلاث مرات، والجاهلين ست مرات، وجهولاً مرة واحدة، وبجهالة أربع مرات، وكلمة الجاهلية أربع مرات أيضاً[1]. وبما أن لفظة الجاهلية هي التي تعنينا أكثر من غيرها لذلك نتتبعها في القرآن الكريم فنجدها وردت كما يلي:

﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾[2]. و**﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾**[3]. و**﴿وَقَرْنَ في بيوتكنَّ ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى﴾**[4]. و**﴿إذ جعل الذين كفروا فيَ قلوبهم الحميّة حميّة الجاهلية﴾**[5].

ومن خلال فهمنا لهذه الآيات والمواقف التي نزلت فيها، وبالاستناد إلى كتب التفسير، يتبين لنا أن كلمة الجاهلية لا تعني الجهل الذي هو ضدّ العلم والمعرفة بقدر ما تدل على معنى السّفه والأنفة والتكبّر والتسلّط[6].

وقد وردت كلمة «الجهل» و«الجاهلية» في أحاديث الرسول ﷺ منها قوله: «إن بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل»[7]. وواضح من هذا الحديث أن المقصود بالجهل أنه ضد العلم؛ وذكر أيضاً أن النبيّ ﷺ خرج ذات يوم محتضناً الحسن أو الحسين عليهما السّلام، فقال: «إنكم لتبخلون وتجبنون وتجهلون، وإنكم لمن ريحان الجنة»[8]. وذلك كناية عن شدة الحب والإيثار للأولاد، فالرجل لا

---

(1) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ مادة جهل ص 184 ـ دارإحياء التراث العربي ـ بيروت ـ عن دار الكتب المصرية 1945.

(2) سورة آل عمران ـ الآية 154.

(3) سورة المائدة ـ الآية 50.

(4) سورة الأحزاب ـ الآية 33.

(5) سورة الفتح ـ الآية 26.

(6) أنظر صفوة البيان لمعاني القرآن ـ الشيخ حسين مخلوف ـ الطبعة الثالثة 1987.

(7) الحديث النبوي الشريف ـ كمال عز الدين ـ ص 103 ـ دار إقرأ ـ مصر.

(8) نفس المصدر ص 233.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتحمّل أن يرى الدموع الشاكية من أبنائه، وكثيراً ما يندفع بالعاطفة إلى نصرهم فيجهل وقد يكونون هم المعتدين. وهنا المقصود بالجهل ضد الحلم.

وفي حديث آخر قال عليه السّلام: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»[1].

في هذا الحديث الشريف يستنكر الرسول ﷺ صفات لم تزل متفشية بين المسلمين وهي من عادات الجاهليين، عادات أهل الكفر والوثنية، مع أنهم دخلوا في الاسلام وشتان بين عهد الكفر وعهد الايمان، والحقيقة أنه للجاهلية امتداداً نفسياً ما استطاع الإسلام أن يوقفه نهائياً في فترة قصيرة من الزمن، وكأن المراد بلفظة الجاهلية في الحديث هي فترة الجهل بعبادة الله الحقة وبالدين الاسلامي الحنيف وتعاليمه التي تخالف فيما تخالف تلك العادات والتقاليد البالية ومنها المذكورة في الحديث النبويّ الشريف.

وينسب إلى النبي ﷺ قوله إلى أبي ذرّ الغفاري حين عيّر بلالاً الفارسي بسواد أمه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»[2]. أي لم يزل فيك شيء من عادات الجاهلية حيث يعيّر الإنسان بحسبه ونسبه ولونه وما إلى ذلك، مع أن الإسلام دحض تلك العادات، وجاء بتعاليم جديدة: لا فضل لعربيّ على أعجميّ ولا أبيض على أسود إلاّ بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

وفي الأيام الأولى للإسلام كان عمرو بن هشام بن المغيرة وكنيته أبو الحكم، من ألدّ أعداء الرسول ﷺ، فكنّاه النبيّ «أبا جهل» وروي عنه قوله: من قال لأبي جهل، أبا الحكم، فقد أخطأ خطيئة يستغفر الله منها». وروي عنه أنه قال: «لكل أمة فرعون، وفرعون هذه الأمة أبو جهل»[3]. وقد ورد أن الرسول انتهره مرّة، فقال له أبو جهل: «أتنتهرني وتهدّدني وأنا أعزّ أهل البطحاء»[4]. ومن

---

(1) نفس المصدر ص 281.

(2) لسان العرب ـ ابن منظور 11 /130 مادة جهل.

(3) أنساب الأشراف ـ البلاذري ص 125/1 ـ تحقيق محمد حميد الله ـ دار المعارف بمصر 1959.

(4) المصدر نفسه ص 126/1.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قوله هذا يتبين لنا مدى تكبّره، وتجبره وتسلّطه، لذا خصه الرسول بهذه الكنية دون غيره من رجالات قريش الذين وقفوا ضدّ الاسلام في مهده وحاربوه.

وهكذا يتبين لنا أن الأصل المشتق من كلمة «الجاهلية» قديم، ورد في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول ﷺ، ولكن هذه الكلمة مستحدثة بظهور الإسلام، وأطلقت كمصطلح يفرّق بين عهدين، عهد ما قبل الإسلام كان يسوده الكبر والتجبر والتسلط والتعصب القبلي، وعهد جديد جاء بمكارم الأخلاق والخضوع لله وانقياد للشريعة المحمديّة، وتوسع هذا المصطلح حتى أصبح يستعمل في الناحية الأدبية فصرنا نقول: أدب العصر الجاهلي وأدب صدر الإسلام وهكذا..

ولكن هل نجد تآلفاً بين هاتين الكلمتين: الأدب الجاهلي، إذا كان المقصود بالجهل ضد العلم؟ وهل يتوفر الأدب في بيئة جاهلية؟ وما هو مستواه وقيمته؟

صحيح أن الإسلام أحدث تغييراً هائلاً في حياة العرب، زلزل كلّ ما كان مألوفاً لديهم في عهدهم السابق للإسلام، ولكن آثار شعر ما قبل الإسلام ونثره، ظلت واضحة، بحيث لا ينكرها أحد في العهود التي تلت الإسلام، مما يدل على أنه كان لعرب العصر الجاهلي، حضارتهم المتطورة قبل الإسلام.

إن عرب الجاهلية، في شبه الجزيرة العربية، كانوا أهل مدر (قطع الطين اليابس)، وأهل وبر، فأما أهل المدر، فهم الحواضر وسكان القرى وكانوا يعيشون من الزرع والنخل والماشية والتجارة. وأما أهل الوبر، فهم الذين يقطنون الصحارى يعيشون من ألبان الإبل ولحومها منتجعين منابت الكلأ، مرتادين لمواقع المطر، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي، ثم يتوجهون لطلب العشب والبحث عن المياه، فلا يزالون في حلّ وترحال، وكثيراً ما تحصل المعارك والحروب بين القبائل المتنافسة على أمكنة الرعي والكلأ والمياه؛ فالطبيعة هي التي صيرت العرب على هذا الحال، وهي التي غلّبت عليهم البداوة، وجعلت من وُلد فيها إنساناً قلقاً هائماً على وجهه.

وكان من أثر اختلاف طبيعة الجو والأرض في أهل جزيرة العرب، أن صار لأهل المدر مجتمع يختلف في شكله وتكوينه عن مجتمع أهل الوبر،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان هناك مجتمع ثالث يعيش بين البادية والحواضر، فصار يزرع بعض الزرع ويرعى البقر والخيل والأغنام والمعز، ويأتي إلى القرى ليبيع ما فاض عنه من الألبان والزبد والجلود والأصواف والحيوانات، ويشتري منها ما يحتاج إليه[1].

ولكي تكون الصورة أوضح نشير إلى أنه كان هنالك على تخوم الجزيرة العربية إمارات عربية بدعم أجنبي، كان لها أثرها في حياة العصر الجاهلي من الناحية الأدبية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، من أهم تلك الامارات:

1 ـ إمارة المناذرة في الحيرة، وقد قامت هذه الإمارة بنفوذ من الفرس لتكون حاجزاً بينهم وبين القبائل البدوية التي تغير على أطراف دولتهم، وحاجزاً بين الفرس والروم أيضاً، وقد اتخذت الحيرة حاضرة لهذه الامارة، وهي بلدة قريبة من نهر الفرات وتبعد حوالي ثلاثة أميال عن مدينة الكوفة التي بنيت فيما بعد. ومن أشهر ملوكها: النعمان والمنذر وعمرو بن هند وغيرهم.. وكان لملوك الحيرة أثر واضح في الشعر والشعراء، إذ يتقبلون مدائحهم ويغدقون عليهم من عطاياهم لذلك اتصل بهم العديد من شعراء الجاهلية. حتى أنه يقال إنه كان لملوك الحيرة اليد الطولى في إثارة الخلافات بين القبائل العربية وهي سياسة فرّق تسد.

2 ـ إمارة الغساسنة في الشام، الذين كانوا درعاً للرومان وخلفائهم البيزنطيين من غارات البدو ومن أعظم أمرائهم الحارث بن جبّلة، وكان ملوك غسان يدينون بالنصرانية، فهم غير خصومهم التقليديين «المناذرة» الذين كانوا في جملتهم وثنيين. وكان للغساسنة أثر أيضاً غير قليل في حياة الشعر الجاهلي، حيث كان الشعراء يقصدونهم بالمديح ليجزون عليها بالأموال الوافرة. ويبدو أن التنافس بين المناذرة والغساسنة جعل شعر المديح يزدهر بين شعراء الجاهلية. وهو الشعر الذي تولدت عنه ظاهرة التكسب التي نجدها عند بعض الشعراء مثل الأعشى وحسان والنابغة وغيرهم.

3 ـ إمارة كندة، وكندة قبيلة قحطانية في عرف النسابين، وقد عرفت عند

---

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 271/4 وما بعدها ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ مكتبة النهضة بغداد 1978.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأخباريين بكندة الملوك، لأن الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان، ولأنهم ملكوا أولادهم على القبائل، وأشهر ملوكهم حُجر الملقب بآكل المُرار، وقد استطاع أنْ يفرض سيادته على القبائل الشمالية في نجد وأن يمدّ نفوذه إلى اليمامة وتخوم إمارة المناذرة، ومن ملوكها الحارث وفي عهده بلغت كندة ذروة مجدها، ومن ملوكها «حجر» والد الشاعر امرىء القيس الذي حاول أن يثأر لأبية من بني أسد ففشل وبموته انطوت صفحة إمارة كندة من حياة القبائل العربية قبل الإسلام[1].

وكان لأمراء كندة أثر في الشعر الجاهلي فقد كان عدد من الشعراء يتصلون بهم ويمدحونهم منهم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم، ثم انّ عبيداً انقلب على أمراء كندة وهو شاعر بني أسد لذلك نراه يسخر من امرىء القيس ويبيّن عجزه عن استرداد ملك آبائه. ثم إن من بقي من كندة لجأ إلى حضرموت وأخذوا يتعاملون مع قبائل عربية جنوبية لتوسيع ملكهم[2].

هذه الامارات الثلاث التي قامت في شمال شبه الجزيرة العربية وشرقها، كانت تواكبها مكة في الحجاز، وهذه في عهد قريش كانت بعيدة عن التأثير الخارجي، وقد ساعدها موقعها الجغرافي ـ في منتصف طريق القوافل بين اليمن والشام ـ لتمسك بزمام الحركة التجارية في شبه جزيرة العرب، كما أنها كانت أكبر مركز ديني للوثنية الجاهلية، وقد دعم مكانتها غزو الأحباش المسيحيين لليمن، فتحولت أفئدة العرب الوثنيين إليها مما أكّد زعامتها وزعاماة أهلها (قريش) على العرب، فهي بيت تجارتهم وبيت كعبتهم المقدّسة وموئل أصنامهم، فيها يقيمون أعيادهم الدينية وفيها يقيمون أسواقهم التجارية إلى جانب أسواقهم الأدبية، وبذلك هيأت لحركة أدبية واسعة النطاق سيطرت فيها لغة قريش فأصبحت لغة الأدب الرفيعة[3].

إلى جانب مكة كان في الجزيرة العربية بعض الحواضر والقرى التي

---

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 315/3.

(2) المصدر نفسه 366/3 وما بعدها ـ وانظر ديوان عبيد بن الأبرص ـ ص 129 ـ دار بيروت للطباعة والنشر 79.

(3) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 9/4 وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان لها شأنها منها الطائف التي كانت مصيفاً للقريشيين نظراً لارتفاعها عن سطح البحر والتي كانت وسط رياضٍ وبساتين، وهناك يثرب التي تقوم في وادٍ خصبٍ حيث تكثر الآبار والعيون، وكان يسيطر عليها اليهود الذين كانوا يقومون على الحرف والصناعات وخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة، وقد ظل اليهود مسيطرين على المدينة حتى وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج الأزدية من الجنوب وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها، فلم يلبث اليهود أن أوقعوا بين الأوس والخزرج، وتحرّجت الظروف تحرجاً شديداً بينهم حتى غدا كأنه من المستحيل أن يكفوا عن المعارك والقتال وكأنّما تعاهدوا على الفناء، لولا أن نزل بينهم الرسول محمد ﷺ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً إذ دخلوا في الدين الاسلامي الجديد.

يتبين لنا مما تقدم أن العرب في العصر الجاهلي لم يكونوا منعزلين عن العالم الخارجي بل كانت لهم علاقات واتصالات مع جيرانهم من الفرس والرومان والبيزنطيين والأحباش وسواهم، ولا شك أنهم كانوا يؤثرون ويتأثرون بشيء من العادات والتقاليد وغيرها، وقد عرفنا أنهم إلى جانب الوثنية التي كانت متفشية فيما بينهم كانت فئات منهم تدين بالحنيفية واليهودية والنصرانية، إلى جانب ذلك كانت عندهم خصال كريمة أهمها الكرم وكانت من الصفات التي يركز عليها الشعراء في مدائحهم. ثم الوفاء بالوعد والعهد وحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه، وكذلك إغاثة الملهوف والعفو عند المقدرة، والأنفة والعزة وإنكار الذلّ والهوان، والشجاعة والفروسية وغيرها[1].

ومما لا شك فيه أن العرب الجاهليين الذين عاشوا في تلك الفترة المتوغلة في التاريخ، وفي بعض المناطق البعيدة عن أماكن الحضر كان يسود مجتمعهم، إلى جانب ما ذكرناه من عادات حسنة، الكثير من العادات والتقاليد السيئة أهمها الأخذ بالثأر، ولعب الميسر وشرب الخمر وإباحة النساء وغيرها، أضف إلى ذلك التخلف الثقافي مما أدى إلى اعتقادهم بالخرافات والجن

---

(1) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ص 54 ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف بمصر 1976.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسادت في أوساطهم الأساطير[1]. حتى أننا ونحن نطالع تفاصيلها تعلو شفتينا ابتسامة فيها شيء من السخرية وشيء من العطف على تلك الأمم.

إنما يجب أن لا يغيب عن بالنا أمران: الأول أننا نحكم على أولئك الناس ونحن في القرن العشرين نتمتع بحصيلة العلوم والثقافات منذ ذاك التاريخ وحتى الآن، إذ ان الحكم الصحيح هو أن ننظر إليهم بواقعهم وزمنهم وواقع الشعوب الأخرى، فلربما يكون هؤلاء أسوأ حالاً.

والأمر الثاني هو أنه يجب أن نميّز بين أهل الحضر وأهل الوبر في الفترة الزمنية عينها، إذ انه كانت هناك فروقات شاسعة بينهما من حيث العقلية وطريقة التفكير والحالة الاجتماعية، وقد انتبه ابن خلدون إلى ذلك وذكر في مقدمته عدة فصول مشتملة على فروق بين الفريقين[2].

ونحن نختلف مع ابن خلدون في قوله إن العرب أبعد الناس عن الصنائع، حيث كتب فصلاً كاملاً عن ذلك[3]. لأنه من المفروض أن يحدّد الفترة الزمنية التي يتحدث عنها وبالتالي يقوم بدراسات تشمل جميع البشر في تلك الفترة عينها، وعلى ضوء ذلك يعطي حكمه. وقد سبق أن قمت ببحث عن الصناعات والحرف في العصر الجاهلي من خلال الأدب الجاهلي فتبين لي أن العرب حينها كان عندهم صناعات مختلفة في النجارة والأخشاب وصناعة النسيج والحياكة والألبسة، وصناعة المعادن والتعدين والمعادن الثمينة والدباغة والحرف الجلدية والبناء والحصون والسدود والعمارة ويكفيهم فخراً القصور التي بنوها حينها وأخصها قصر غمدان الذي قيل إن ارتفاعه حوالى مئتان وثمانون ذراعاً وإذا صحّ هذا القول، يكون العرب قد بنوا في العصر الجاهلي أول ناطحة سحاب في العالم[4].

---

(1) أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 806/6 ـ والأسطورة عند العرب في الجاهلية ـ حسين الحاج حسن ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت 1988.

(2) أنظر مقدمة ابن خلدون ابتداءً من الفصل الثاني ص 120 وما بعدها.

(3) مقدمة ابن خلدون ص 401.

(4) الصناعات والحرف في العصر الجاهلي ـ واضح الصمد ـ ص 281 المؤسسة الجامعية ـ بيروت 1981.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن أي إنسان يريد أن يبحث عن أمر ما في ذلك العصر، عليه أن يعود إلى الأدب الجاهلي، الشعر وشيء من النثر، وهذا الأدب هو ديوان العرب في عصر ما قبل الإسلام حيث نتعرف من خلاله إلى تاريخهم وفكرهم، وهو يصور مجتمعهم، وصلاتهم مع بعضهم وغيرهم، ومعتقداتهم، كما يرسم لنا وديانهم وجبالهم وأسماء منتجعاتهم، ومواضع حروبهم، وداراتهم. وصحاراهم وغير ذلك.

وإذا كان ثمة خلاف بين الباحثين على صحة الشعر الجاهلي، فمنهم من يقول كله منحول، وآخرون يقولون بعضه، فإن الراجح أن أكثرية ذاك الشعر الذي وصلنا يعود إلى العصر الجاهلي.

والسبب الرئيسي في الخلاف لعدم توفر دواوين لذاك الشعر مكتوبة في العصر الجاهلي بل كانت الرواية هي الوسيلة العظمى التي وصل عن طريقها إلى عصر التدوين، وهنا نشير إلى احتمال ضياع قدر كبير من الشعر الجاهلي، غير أن ما بقي من هذا الشعر مع كونه جزءاً قليلاً، إلاّ أنه غزير إذا ما قيس بما خلّفه أي شعب من شعوب العالم. ومن أهم موضوعات الشعر الجاهلي: الحماسة، والمراثي، والهجاء، والمديح، والاعتذار والوصف.

والملاحظ أنه كان لبناء القصيدة وترتيب موضوعاتها صورة ثابتة مقرّرة حتى فرضت نفسها على المتأخرين فرضاً، وكذلك كان أسلوب التعبير عن هذه الموضوعات قد اتخذ صورة ثابتة حتى لم يعد بدٌّ للمتأخرين الذين اتخذوا من الشعر الجاهلي نماذجهم من الالتزام بهذه الصورة.

أما النثر، فإن القدماء من علماء الأدب ونقاده في اللغة العربية يرون أنه أسبق من الشعر، يقول ابن رشيد: «وكان الكلام كلّه منثوراً، فاحتاجت العرب إلى التغني بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة.. فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً»[1]. فهم يرون أن النثر هو أول ما ظهر من فنون الأدب، ثم نشأ الرجز، ثم الشعر.

---

(1) العمدة ـ ابن رشيق 5/1.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن مظاهر النثر: الخطابة والأمثال والحكم وسجع الكهان، لكن أكثره قد فُقد لعدم تدوينه لجهل أكثرية العرب بالكتابة، لذلك قلّ المرويُّ منه، بعكس الشعر الذي يسهل حفظه وروايته لما فيه من قيود الوزن والقافية مما يجعله عالقاً بالأذهان محفوظاً في القلوب.

إن الأدب يتغيّر بتغيرات البيئة، فالشاعر البدوي يصور لنا الصحراء وما فيها، والمتحضر يصف لنا ما حوله مكرهاً أو مختاراً، وإذا وصف أحدهما بيئة أخيه، أتى بكلام مقلّد، بعيد كل البعد عن واقع بيئته. ومن هنا كان من السهل علينا ونحن نقرأ قصيدة أن نعرف صاحبها إن كان جاهلياً أو إسلاميّاً، ومن السهل أيضاً أن نعرفه بدوياً أو حضرياً، ومن السهل أن نعرفه إن كان أميراً أو صعلوكاً يجوب القفار.

وبعد، إن العرب أمة صناعتها الكلام، ومفخرتها البيان، فهم أهل لسن وفصاحة، يزدهيهم القول، وتأخذ بألبابهم البلاغة، ومن هنا أُثِر لهم من جوامع الكلم، ونوابغ الأساليب، وفرائد القول، ما يعدّ على وجه الزمن من مآثرهم الخالدة ومناقبهم الباقية.

والدارس لمأثور كلامهم عليه أن يعود إلى مصادره الأولى إلى الأدب الجاهلي، نثره وشعره، ثم دراسة القرآن الكريم الذي جاء معجزة في البيان وحمل راية التحدّي لقدرات العرب اللغوية.

هذا القرآن الذي نزل على محمد بن عبد الله ﷺ وغيّر مفاهيم الأمم والشعوب، وأصبح العرب بفضله خير أمة على وجه الأرض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ينهجون في حياتهم نهجاً جديداً، ويقدمون لنا أدباً جديداً هو أدب صدر الإسلام، وهذا ما سنتحدث عنه في الفصول التالية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثاني

الإطار التاريخي

الفصل الأول

مهد الإسلام

إن حياة العرب في الجاهلية كانت عرضة للمشاحنات والمنازعات، محفوفة بالمصاعب والأخطار، فقد كان على الإنسان العربي أن يبحث عن رزقه ورزق عياله، ومرعى لحيواناته، هذه الحالة كانت أكثر ما تكون في البوادي والصحارى، بينما في الحواضر، كانت الحياة تختلف نظراً للاستقرار والأمن فكانت الزراعة ناشطة نسبياً في الأماكن المجاورة للقرى حيث تتوفر المياه، وكانت التجارة ناشطة في بعض الأماكن وخاصة في مكة التي كانت محوراً لعلائق تجارية تربطها ببقية سكان شبه الجزيرة العربية بدواً وحضراً على حدٍّ سواء، وكانت محطة لتجارة عالمية تنطلق منها القوافل شمالاً حيث الامبراطورية البيزنطية، وشرقاً إلى بلاد فارس وجنوباً إلى اليمن ومنها إلى الحبشة والمحيط الهندي وغيره.

وكانت مكة حينها مركزاً رئيساً لعبادة الأصنام لأن فيها الكعبة التي كانت تضم عدداً من الأصنام تمثل معبودات العرب منها: اللات، والعزّى، ومناة وغيرها، لذلك كان العرب يحجّون إليها قبل الإسلام[1]، وكانت الديانة الوثنية هي السائدة في شبه الجزيرة العربية وإلى جانبها كانت الديانة اليهودية والمسيحية وكان بعضهم على الحنيفية وغيرها[2].

---

(1) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ص 19/13 ـ ترجمة محمد بدران ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة، الطبعة الثانية 1964.

(2) أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي ـ الجزء السادس ـ يتضمن معلومات وافرة عن أديان العرب قبل الإسلام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت أراضي العرب ولم تزل محطّ أنظار الكثير من الطامعين بخيراتها وبالاستيلاء عليها نظراً لموقعها الجغرافي الهام، فقد طمع فيها البيزنطيون والرومان وحاولوا التغلغل فيها بمساعدة الغساسنة في شمال شبه الجزيرة العربية، وعمل الفرس بكل طاقاتهم وبمساعدة المناذرة للهيمنة على شبه الجزيرة العربية من الشرق، ثم جاء الأحباش وسيطروا على اليمن في جنوب شبه الجزيرة العربية وحاولوا التقدم نحو الشمال وكان على رأس جيشهم أبرهة الذي بنى بصنعاء كنيسة «القليس» التي لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض وكتب إلى النجاشي (امبراطور الحبشة): إنّي قد بنيت لك كنيسة لم يُبْنَ مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حجّ العرب»[1]. ثم إن ابرهة سار على رأس جيش كثيف لهدم الكعبة في مكة التي حاصرها عام 570 ميلادية، ولكنه ارتدّ عنها منهزماً، وكان في جيشه فيلة، ولم يكن أهل مكة رأوا فيلاً في الجيوش من قبل، فسمّوا ذلك العام «عام الفيل». في ذلك العام ولد: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم في مكة[2].

ويقول الطبري: «كان مولد رسول الله ﷺ في عهد كسرى أنو شروان، عام قدِم أبرهة من الحبشة إلى مكة، وساق فيه إليها الفيل، يريد هدم بيت الله الحرام.. وفي هذا العام كان يوم جَبَلة، وهو يوم من أيام العرب مذكور»[3].

ولما بلغ محمد ﷺ الأربعين من عمره اختاره الله لأداء رسالته وبعثه رسولاً إلى الناس أجمعين، تلك الرسالة التي غيّرت أحوال العرب تغييراً جذرياً وبالتالي كان لها شأنها على العالم أجمع.

لذلك سنحاول التعرّف إلى البيئة التي نشأ فيها الرسول، حيث بدأت الدعوة، أي مكة، ثم الأماكن التي انتقل إليها في سبيل دعوته أي الطائف

---

(1) البداية والنهاية ـ ابن كثير 170/2 مكتبة المعارف بيروت ـ الطبعة الرابعة 1981.

(2) تاريخ الأدب العربي ـ عمر فروخ 237/1 دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة 1981.

(3) تاريخ الطبري ـ محمد بن جرير الطبري 154/2 تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر 1968.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمدينة (يثرب) وغيرها، وهي كما يلي:

1 ـ مكة

بيت الله الحرام ويقال إن اسمها أيضاً «بكة» ولها أسماء غير ذلك منها أم القرى والبلد الأمين وغيرها.. ومن شرفها أنها لم يؤدّ أهلها إتاوة ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان تحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان.. فهي مدينة في واد، والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي[1]. ولم تزل مناسك للحج يأتيها الناس من كل فجّ عميق فلا يدخلونها إلاّ متواضعين متخشعين متذلّلين كاشفي رؤوسهم متجردين عن لباس أهل الدنيا وهي بلد حرام آمن لا يُسفك فيه دماء.. الخ..[2] وهي في واد غير ذي زرع ومناخها حارّ لا يطاق صيفاً، ولكن موقعها في منتصف ساحل البلاد الغربي، وعلى بعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر، جعلها محطة صالحة في طريق القوافل الطوال التى تجمع في بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض[3].

وفي النصف الأول من القرن السادس الميلادي كانت أحوال مكة في أوج النجاح والازدهار، وكانت تجارتها المحلية تعتمد على مركزها الديني، الذي كان بدوره معتمداً على نظامها التجاري، الذي تحوّل إلى تجارة دولية، ويعود الفضل في ذلك إلى هاشم كبير مكة «شيخ قريش» والجدّ الأعلى للنبي محمد ﷺ الذي حصل على عهود مع البيزنطيين والفرس وملوك الحبشة وبالتالي مع زعماء القبائل العربية، والجدير بالذكر أن النبي ﷺ كان مشاركاً نشطاً في تلك التجارة[4].

وهذه البلدة التاجرة استلزمت تجارتها، كما استلزمت الحياة فيها أن توجد بعض الصناعات فيها، وفي أخبارها أن منها من كان يعالج العطر والنّ،

---

(1) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي 181/5 ـ شرح مقامات الحريري البصري ـ بإشراف محمد عبد المنعم خفاجي ـ 127/3 ط 2 ـ 1979 المكتبة الشعبية.

(2) زاد المعاد ـ ابن القيّم الجوزي ـ 7/1 ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(3) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ ترجمة محمد بدران ـ 18/13.

(4) التاريخ الإسلامي في تفسير جديد ـ محمد عبد الحي شعبان ـ ص 23 دار الدراسات الخليجية ـ 1982.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وآخر نجاراً وثالث جزاراً. وغيره حداداً أو خزازاً أو حائكاً وكان جلّ هؤلاء من الأشراف[1].

ولعل فيما قدمناه ما يدل على ارتفاع شأن مكة في الجاهلية، فقد كانت تُعدّ عاصمة الجزيرة العربية، وقد اتخذت من عكاظ سوقاً يلتقي فيه الخطباء والشعراء، وبذلك كانت قطب الدائرة الأدبية في الجزيرة العربية، فضلاً عن ثرائها ومكانتها التجارية والدينية، ولم تزل كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً ﷺ.

2 ـ المدينة

مدينة الرسول ﷺ، أو يثرب كما كانت تسمّى في الجاهلية، وقد ذكر ياقوت الحموي أن لها تسعة وعشرين إسماً منها: طابة، وطيبة، والمسكينة، والعذراء والخ.. وأما قدرها فهي مقدار نصف مكة، ولها نخيل كثيرة ومياه، ونخيلهم وزروعهم تسقى من الآبار وأعذب مياه تلك الناحية آبار العقيق. وكان أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخل وعمّر بها الدور هم العماليق، وظلوا أسياد المدينة حتى أتاهماليهود الهاربين من بطش الروم في بلاد الشام وهم من بني قريظة والنضير وغيرهم. فأصبحوا هم أسياد المدينة وظلوا كذلك حتى مجيء الأوس والخزرج النازحين من اليمن فأقاموا إلى جوارهم على جهد وضنك من العيش ثم انتصر الأوس والخزرج على اليهود بمساعدة ملك الروم وصار لهم الأموال والآطام»[2] ولما شعر اليهود أن لا قبل لهم بالأوس والخزرج عملوا في الدس والوقيعة بينهما، وقد كان اليهود يمدّونهما بالسلاح الذي يستخدمانه في حروبهما، إذ كانت فئة منهم تصنع الأسلحة، فكانت فائدة اليهود من ناحيتين: الأولى: إذكاء نار الحرب بين أعدائهم (الأوس والخزرج)، والثانية: بيع الأسلحة التي يصنعونها وبذلك تكون فائدتهم مادية. وهكذا اشتعلت نار الحرب بين الأوس والخزرج في المدينة في أواخر العصر الجاهلي وكانوا لا يرفعون أيديهم من دماء حرب قديمة حتى يغمسوها في دماء حرب جديدة، وكأنما تعاهدوا على الفناء، وهكذا نراهم غارقين في الدماء كما كانوا

---

(1) المحاسن والأضداد ـ الجاحظ ص 93 ـ دار صعب ـ بيروت ـ تحقيق فوزي عطوي.

(2) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي 82/5.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غارقين في الوثنية، وحينها كانت بعثة الرسول ﷺ الذي نزل في المدينة وأنقذهم مما كانوا عليه، وجعلهم بنعمة الله إخواناً[1].

3 ـ الطائف

كانت بلدة صغيرة على طرّف واد وهي محلّتان: إحداهما على هذا الجانب يقال لها طائف ثقيف والأخرى على هذا الجانب يقال لها الوَهْط، والوادي بين ذلك تجري فيه مياه المدابغ التي يُدبغ فيها الأديم، تصرع رائحتهاالطيور إذا مرّت بها، وفي أكنافها كروم العنب، وكانت حاصلاتها تشمل العسل والبطيخ والموز والتين والزيتون والعنب، وأمّا زبيبها فيضرب بحسنه المثل، واشتهرت ورودها بالعطر الذي كان يمدّ أهل مكة بما يحتاجون إليه من طيب؛ وهي تقع على إرتفاع نحو ستة آلاف قدم وهي طيبة الهواء، وكانت ولم تزل مصيفاً لأرستقراطية مكة. وقيل سميت طائفاً بحائطها المبني حولها المحدق بها. وجلّ أهل الطائف ثقيف وحمير وقوم من قريش، ثم حسدهم طوائف العرب وقصدوهم فصمدوا لهم وجدّوا في حربهم، فلما لم يظفروا منهم بطائل تركوهم على حالهم، هم أغبط العرب عيشاً إلى أن جاء الإسلام[2].

وبعد أن تعرفنا على مكة والمدينة والطائف التي كانت مهداً لانطلاقة الدين الجديد الذي أتى به محمد ﷺ، يجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة على الجزيرة العربية التي ساهم شعبها مساهمة فعالة في نشر الإسلام خارج حدودها حتى أن هذه الأمة العربية تمكنت وفي مدى قرن واحد أن تنشىء دولة عظيمة واسعة الأرجاء بسطت سلطانهامن شواطىء المحيط الأطلسي إلى تخوم الصين.

4 ـ أطراف الجزيرة

إن شبه جزيرة العرب تمتد في رقعة من الأرض واسعة إذ ليس في خريطة الكرة الأرضية جزيرة تضاهيها حجماً، فما بين البحر الهندي في أقصى الجنوب

---

(1) الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ـ شوقي ضيف ص 18 ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية 1967.

(2) تاريخ العرب ـ فيليب حتي ورفيقيه ـ ص 150 ـ دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الخامسة 1974. وانظر معجم البلدان ـ ياقوت الحموي 9/40.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى ما بعد دمشق في أقصى الشمال، وما بين بحر فارس ونهري دجلة والفرات في الشرق إلى البحر الأحمر بل إلى نهر النيل في الغرب، كان يعيش العرب. وكان لا بدّ لهذه الرقعة المترامية الأطراف من أن يختلف مناخها كما اختلفت طبيعة أرضها ففيها الحرّ الذي يشوي الوجوه، والثلوج التي تكلل الجبال وفيها ما بين هذا وذاك مناخ معتدل، وفيها أمطار غزار تنساب أنهاراً وجداول تقوم على جانبيها مدن وقرى، وتهتز الأرض فتخرج من ثمرها وبقلها وفاكهتها ما شاء لها الله، وقد تمسك السماء فيكون من هذا الرذاذ مراع ينتجعها سكان الصحارى بأنعامهم. وقد ينقطع الغيث لفترة طويلة فلا يجد قاطن الصحراء من أسباب العيش فيهيم على وجهه باحثاً عن رزق وقد لا يجد إلاّ إنساناً آخر يفتك به وتبدأ المعارك بين القبائل وهكذا..[1].

وبما أن معظم سطح شبه الجزيرة العربية صحراء يحيط بها البحر من عدة جهات، فإذا ما زاد عدد السكان عن طاقة الأرض لاحتمالهم كان على الفائضين أن يبحثوا لهم عن مدى حيوي يعيشون فيه وليس أمامهم سوى الاتجاه نحو الشمال، وهذا كان دأبهم منذ عدة قرون قبل الميلاد، وتلك الموجات التي نزحت أصبحت مع تعاقب الأجيال أمم البابليين والأشوريين والفينيقيين والعبرانيين[2].

وبما أن لشبه الجزيرة العربية موقع جغرافيّ مهم، لتوسطها بين الشرق والغرب وبالتالي فهي صلة وصل بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، لذلك كان طريقاً تجارياً هامّاً، فكان لها تجارتها الداخلية والخارجية، وكان لهم حرف صغيرة وصناعات كثيرة[3].

---

(1) مصادر الشعر الجاهلي - ناصر الدين الأسد ص 4 - دار المعارف بمصر - الطبعة الرابعة 1969.

(2) تاريخ العرب - فيليب حتي - ادوار جرجي - جبرائيل جبور - ص 29 - دار غندور - بيورت - الطبعة الخامسة 1974.

(3) أنظر كتاب الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي - واضح الصمد - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر 1981.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي تلك البقعة من العالم كان العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب: كان منهم من آمن بالله، ومنهم من تعبّد الأصنام زاعمين أنها تنفع وتضر، ومنهم من دان باليهودية، ومنهم من دان بالنصرانية، ومنهم من دان بالمجوسية ومنهم من لم يعتقد بشيء، ومنهم من تزندق، ومنهم من آمن بتحكّم الآلهة في الإنسان في هذه الحياة، وببطلان كلّ شيء بعد الموت فلا حساب ولا عقاب..[1].

وقد كان لبعض القبائل عبادات وأصنام خاصة بها، وبزوال تلك القبائل نتيجة الحروب أو غيرها تزول معها تلك العبادات والأصنام، وقد تنشأ معارك وحروب بسبب المذاهب والمعتقدات، كما حصل بين اليهود والنصارى حين قدم ذو نواس بجنوده إلى نجران التي كانت من المراكز الرئيسة للنصرانية في شبه جزيرة العرب فدعاهم إلى اليهودية وخيّرهم بين ذلك والقتل، فاختاروا القتل، فخدّ لهم الأخدود، فحرق من حرق في النار، وقتل من قتل بالسيف ومثّل بهم حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً[2].

في هذا الواقع الجغرافي والاجتماعي والديني، كان يعيش العرب في العصر الجاهلي، وقد ظلوا على هذا الحال حتى جاء محمد ﷺ بالإسلام، فغيّر أوضاعهم تغييراً جذريّاً، فجمع شتاتهم، وجعلهم أمة واحدة، تصبو إلى هدف واحد، وتعبد ربّاً واحداً.

---

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 34/6 ـ دار العلم للملايين ـ مكتبة النهضة بغداد ـ ط 1978/2.

(2) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي 268/5.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

البعثة النبويّة

حياة الرسول من المولد حتى المبعث

كان العرب إذن مهيئين للنقلة، متأهبين للثورة الدينية والسياسية الكبرى التي اتخذت في أول الأمر مظهراً دينيّاً لم يلبث أن اكتسب طابعاً سياسياً، وأصبحت الدعوة في آن واحد إلى دين ودولة، ظهرت هذه الثورة في مدينة مكة معقل الوثنية العربية، والمركز التجاري الهام في الجزيرة العربية.

وصاحب الدعوة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.. ويرتفع نسبه الكريم إلى عدنان ثم إلى ابراهيم الخليل وأخيراً إلى شيث بن آدم عليه السّلام.[1] ووالدته آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة الخ.. وكانت يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً[2]. وكان عبد الله أيضاً من أجمل رجال قريش، وقد توفي عبد الله وزوجه آمنة حامل بالنبي ﷺ، وكانت وفاته في المدينة التي عرّج إليها وهو عائد من الشام في تجارة لأنه أحسّ بالمرض ينتابه فآثر البقاء هناك عند أخواله بني عديّ بن النجار فأدوكته المنية ومات وله خمس وعشرون سنة. وبعدها ولد النبي يوم الاثنين لعشر ليالٍ خلون من شهر ربيع الأوّل، وكان ذاك العام عام الفيل[3]. وبما أنه ولد يتيم الأب،

---

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ تحقيق السقا والأبياري وشلبي 1/1 ـ والطبقات الكبرى لابن سعد 55/1 ـ دار صادر ـ بيروت.

(2) السيرة النبوية ـ ابن هشام 156/1 ـ والطبقات لابن سعد 59/1 ـ والمعارف ـ ابن قتيبة ص 129 ـ دار المعارف بمصر 1969.

(3) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 100/1.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

احتضنه جدّه عبد المطلب، وقام (على قاعدة ارستقراطية مكة) بدفعه إلى مرضعة بدوية من بني سعد، عرفت باسم حليمة ابنة ذؤيب، حيث بقي عندها حوالى خمس سنوات، نال حظه هناك من الهواء النظيف واللغة السليمة، والعادات القويمة وبعدها عاد إلى أمه وجدّه، وبعد عودته بقرابة عام سافرت به أمه إلى يثرب لزيارة أقاربهم وفي طريق العودة توفيت فأصبح يتيم الأبوين، يرعاه جدّه عبد المطلب. ولما بلغ الثامنة من عمره توفي جدّه، وكان المأوى هذه المرّة بيت عمه أبي طالب الذي كان يسافر برفقة القوافل، وبعدها اصطحب معه ابن أخيه أثناء عمله داخل مكة وخارجها، وهكذا زار محمد ﷺ بقاع الجزيرة العربية والشام وغيرها[1]. وقد ورد أنه لما وصلت القافلة إلى بصرى من أرض الشام رآه راهب نصراني يقال له: بَحِيرَى، ولمح فيه مخايل النبوة وعلاماتها، فأوصى به عمه أبا طالب بأن يعود به إلى مكة وأن يحذر عليه اليهود[2]. وشبّ رسول الله ﷺ في مكة في رعاية عمّه أبي طالب، واشتغل حيناً يرعى الغنم لأهل مكة، ولما بلغ أربع عشرة أو خمس عشرة سنة حضر حرب الفِجَار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عَيْلان.

وكانت خديجة بنت خُوَيلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة لشدة عفافها وصيانتها، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعِظَم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالٍ لها إلى الشام تاجراً، فقبل وخرج مع غلام لها يدعى ميسرة، ولما عاد إلى مكة بتجارته، باعتها خديجة وربحت منها كثيراً وأخبرها ميسرة أنه لاحظ أشياء عجيبة على رسول الله، وكانت امرأة حازمة شريفة لبيبة كثيرة المال، فطلبت الرسول وعرضت عليه نفسها، فرضي بذلك، لأن كلّ قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر، وتزوجها وكان عمره خمساً وعشرين سنة، وكان عمر خديجة إذ ذاك أربعين سنة وقيل خمساً وأربعين[3].

فلما بلغ الرسول خمساً وثلاثين سنة عملت قريش على تجديد بناء

---

(1) مائة أوائل ـ سهيل زكّار ـ ص 14 ـ دار حسان ـ دمشق ـ الطبعة الثانية 1982.

(2) تاريخ الطبري ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم 278/2.

(3) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص 167/1 وما بعدها ـ والكامل في التاريخ ـ ابن الأثير 39/2 دار صادر بيروت 1979.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكعبة، حتى إذا بلغ البنيان موضع الركن حيث سيوضع الحجر الأسود، اختصمت قبائل قريش فيه، كل قبيلة تريد أن تحصل على شرف رفعه ووضعه مكانه، حتى أنهم استعدوا للقتال، فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً، ثم اتفقوا على أن يقبلوا بتحكيم أول من يدخل عليهم، وكان أن دخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد. فأتى بثوب ووضع فوقه الحجر الأسود، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بُني عليه[1].

ثم إن الرسول حضر حلف الفُضول الذي اتفقت عليه قبائل قريش والذي يقضي بالوقوف إلى جانب أي مظلوم من مكة حتى تردّ إليه مظلمته[2].

وإن أمهات الكتب التي اعتنت بدراسة سيرة الرسول ﷺ، وهي كتب مشهود لها بالثقة أمثال: السيرة النبوية لابن هشام، وكتاب الطبقات لابن سعد، وتاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير وأنساب الأشراف للبلاذري وغيرها تجمع على أن سيرة الرسول ﷺ هي سيرة مثالية لأي إنسان يريد أن يعيش سعيداً كريماً وكذلك فهي شاملة لكل النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد، وكل أب، وكل زوج، وكل صديق وكل مربّي، وهكذا.. إذا كانت هذه سيرة رسول الله، فكيف كانت طريقه لبلوغ غايته؟ وما هي الصعوبات التي صادفته؟ وكيف تمكن من الوصول إلى تبليغ رسالته؟

كيف بدأ الوحيُ؟

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بُدِيء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثلَ فلق الصبح، ثم حبّبت إليه الخلوة، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه (أي يتعبّد)، ويمكث الليالي قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه

(1) السيرة النبوية - ابن هشام 192/1 - تاريخ الطبري 290/2.

(2) الكامل في التاريخ - ابن الأثير 41/2.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحق وهو في غار حرّاء. وعرض له جبريل ليلة السبت وليلة الأحد، ثم أتاه بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، ورسول الله ﷺ ابن أربعين سنة[1].

ثم إن النبي ﷺ بادر بالدعوة إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان والأصنام، وبدأ بأقرب الأقربين إليه وظل ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أُمر بالجهر بالدعوة بعدها. فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال (صغارها) وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به، وكُفّار قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مرّ عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أنّه يكلّمُ من السماء، فلمّا عاب آلهتهم التي يعبدونها وذكر أنّ آباءهم ماتوا على الكفر حينها ناصبوه العداء[2].

وقد ورد أن أول من آمن وأسلم زوجة النبي ﷺ خديجة بنت خويلد، وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق، وأول من أسلم من الصبيان علي بن أبي طالب، وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة، وأول من أسلم من العبيد بلال الحبشي، وأول ما ظهر الإسلام بمكة وأقيمت الصلاة علانية حين أسلم عمر بن الخطاب، رضي الله عنهم أجمعين[3].

وإثر ذلك ازدادت شراسة أعداء الرسول وهم بمجملهم من قريش وظهر عليهم الحسد والبغي، ومنهم من أظهر حقده وكراهيته ومنهم من تستّر مع أنهم على رأيهم، ومن أشهر أولئك الأخصام العنيفين: أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس بن عديّ والوليد بن المغيرة وغيرهم. وقد قال رسول الله ﷺ: كنت بين شرّ جارَيْن، بين أبي لهب وعُقبة بن أبي مُعيْط إن كانا ليأتيانِ بالْفَروث فيطرحانها على بابي..[4].

---

(1) البداية والنهاية ـ ابن كثير 2/3 ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة 1980 ـ أنساب الأشراف ـ البلاذري ص 105.

(2) الطبقات ـ ابن سعد 200/1.

(3) محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ـ علاء الدين البسنوي ص 31 ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية 1978 وانظر البداية والنهاية ـ ابن كثير 24/3.

(4) الطبقات ـ ابن سعد 201/1.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وواصل النبيّ عرض دعوته على قومه وعلى غيرهم، فعاب آلهتهم وحقّرها، وأجمعوا على إيذائه ومعاداته وقدم جماعة منهم يشكونه إلى عمه أبي طالب وطلبوا منه إما أن يكفّه عنهم أو يخلي بينه وبينهم، فردّهم أبو طالب ردّاً جميلاً، وكان هو على علم بكل ما يفعله ابن أخيه، ومضى رسول الله في دعوته للإسلام، فلم يرهبه تهديد قريش، وأدركت قريش مدى خطورة الدعوة الإسلامية على عبادة الأوثان التي هي المصدر الرئيسي لما كانوا يجنونه من ثروات في مواسم الحج. فقصد وفدٌ منهم ثانية أبا طالب، وخاطبوه بلهجة قاسية، فيها التهديد والوعيد، ثم انصرفوا عنه، فعظم الأمر على أبي طالب، وحدّث الرسول بذلك ورجاه أن يُبقي على نفسه وعليه، ولا يُحمله ما لا يطيق. فظن النبي أن عمه قد ضعف وأنه سيسلمه إلى قريش، فقال لعمه: يا عمّ والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته. ثم استعبر فبكى وقام منصرفاً، فناداه عمه، فقال: إذهب يا ابن أخي، فقلْ ما أحببت، فوالله لا أُسلمك لشيءٍ أبداً[1]. ومنذ ذلك الحين، نذر أبو طالب حياته ثم تسلّط مشركو قريش على النبي وعلى من اتبعه من المسلمين بالإيذاء قولاً وفعلاً، وكان من أشد الناس قسوة عليه، عمّه أبو لهب وزوجته وبالغت قريش في مناهضة الإسلام، فوثبت كل قبيلة منها على من أسلم من أبنائها يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، ويفتنونهم عن دينهم[2].

الهجرة إلى الحبشة

ولما رأى النبي ما أصاب أتباعه المسلمين من البلاء والاضطهاد أذن لهم بالهجرة إلى أرض الحبشة التي كانت بلداً مسيحياً وقد عُرِفَ عن ملكها التسامح وسعة الإدراك، وكان أول من هاجر إليها عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله مع أحد عشر رجلاً وثلاث نسوة وتبعهم آخرون حتى بلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً بخلاف الزوجات والأولاد[3]. وأقام المسلمون آمنين

---

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام 266/1.

(2) البداية والنهاية : ابن كثير 49/3.

(3) زاد المعاد ـ ابن القيّم الجوزي ص 44/2 ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام ص 330.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في أرض الحبشة يتمتعون بحريّة تامة ورعاية شاملة في ظل النجاشي ملكها.

على أن الإسلام لم يلبث أن تقوّى بإسلام حمزة بن عبد المطلب ثم بإسلام عمر بن الخطاب، مما أثار غضب المشركين فائتمروا فيما بينهم وتعاقدوا على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب وعزلهم عنهم في شعب أبي طالب، وظلوا على هذا الحال سنتين وقيل سنين. ثم حصل خلاف بين القرشيين أعيد على أثره الرسول وبنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى ديارهم، ثم توفي أبو طالب وخديجة زوجة الرسول وكان بينهما شهر وخمسة أيام وبذلك فقد النبيّ سندين مناصرين له في نضاله، فاشتد إيذاء قريش له، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة يلتمس النصرة من ثقيف في السنة العاشرة من النبوة، ولكنهم أخذوا يتهكمون عليه ورموه بالحجارة فأدموا قدميه وحاول زيد أن يقيه بنفسه فشجّ في رأسه وأخيراً عاد إلى مكة محزوناً لأنه لم يستجب له رجل واحد[1].

قدم رسول الله ﷺ مكة وقومه أشد خلافاً معه إلاّ بعض المستضعفين ممن آمن به فكان يعرض نفسه في المواسم، إذا كانت، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ويسألهم أن يصدقوه بنبوته.

ولما أراد الله عزّ وجلّ إظهار دينه، وإعزاز نبيّه ﷺ، خرج الرسول في الموسم فلقي رهطاً من الخزرج عند العقبة، قادمين من المدينة لخلاف بينهم وبين أنسبائهم الأوس فعرض عليهم الإسلام فآمنوا وصدّقوا وانصرفوا راجعين إلى بلادهم، فلما قدموا المدينة ذكروا ما كان بينهم وبين الرسول ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا بينهم وبعدها حصلت عدة بيعات بين الرسول وبين جماعات من المدينة من الأوس والخزرج، وبعث إليهم مصعب بن عمير ليفقههم في الدين، وعلى يدي مصعب وأسعد بن زرارة تم إسلام عدد كبير من أهل المدينة[2].

---

(1) الطبقات ـ ابن سعد 211/1 ـ وانظر السيرة النبوية ـ ابن هشام ص 419.

(2) السيرة النبوية ـ ابن هشام ص 428وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهجرة إلى المدينة

لقد حدّدت بيعة العقبة الثانية وضع النبي بين أهل المدينة، فقد اعتبرته واحداً منهم، إذ التزم كلٌّ من الأوس والخزرج بحمايته والدفاع عنه بعد وصوله إليهم مباشرة. ثم أمر الرسول المسلمين بالهجرة إلى المدينة واللحاق بإخوانهم من الأنصار، وظل هو في مكة ينتظر أن يأذن له ربُّه بالخروج إلى دار الهجرة ولم يبق معه من المسلمين إلاّ أبو بكر الصديق وعليّ بن أبي طالب، ومن كان منهم محبوساً عند مشركي مكة، أو مريضاً أو ضعيفاً عن الخروج[1].

فلما رأت قريش أن رسول الله قد أصبح له شيعة وأصحاب من غيرهم وبغير بلدهم مكة، وأنهم أصابوا من أهل المدينة منعة، خافوا لحاق النبي بهم ومن ثم يعود للانتقام منهم فاجتمع شيوخ قريش وأخذوا باقتراح أبي جهل، القاضي بأن يجمعوا من كل قبيلة منهم شاباً قوياً ذا نسب، يسلحونه بسيف صارم، ثم يضربوا النبي بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه، ويتفرق دمه في القبائل جميعاً، فلا يدري بنو عبد مناف ما يصنعون، ولا يقوون على حرب جميع قريش. وأتى جبريل رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**وإذ يمكرُ بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك..**﴾[2] فأمر علياً فنام على فراشه ليختلط الأمر على المتآمرين فيظنون أنه النبي، ولكي يؤدّي ودائع كانت للناس عنده؛ وخرج النبي وأبو بكر الصديق حتى أتيا غار ثور، وظلاّ فيه ثلاثة أيام، انصرفا بعدها إلى المدينة، فدخلاها يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وللنبي ثلاث وخمسون سنة[3].

سمع المسلمون في المدينة بخروج النبي ﷺ من مكة، ولما وصل إليهم انتشر الخبر سريعاً بين المهاجرين والأنصار فاستقبلوه استقبالاً عظيماً. ثم بنى مسجد قباء وهو أول مسجد أسس على التقوى، وأقام من حوله مساكنه، وبدأ العمل على توحيد تلك الجماعات المسلمة فربط بين المهاجرين والأنصار

---

(1) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 225/1 وما بعدها.

(2) القرآن ـ سورة الأنفال 30/8.

(3) تاريخ الطبري 260/1 ـ وانظر التنبيه والاشراف ـ المسعودي ص 200 ـ دار صعب ـ بيروت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

برابطة المؤاخاة، ووضع الصحيفة التي تعتبر بحق دستور دولته في المدينة، ثم شرع الجهاد الذي منح المسلمين صفة سياسية واستكملت بذلك أهم خصائص الدولة المدنية، وكذلك كفل لليهود والنصارى حريّة عقيدتهم منطلقاً من مبدأ حسن الجوار الذي يقوم على المحبّة والوحدة وليس على النفور والفناء[1].

كان اليهود يستغلّون كلّ مناسبة للعمل بمساعدة المنافقين على محاربة محمد ﷺ وأتباعه من المسلمين، فقد حاولوا الغدر به في معركة «أحد» لذلك طرد بني النضير من اليهود من المدينة، وفي معركة الخندق، عندما أحاطت قريش ومن آزرها من القبائل المدينة، نقض بنو قريظة اليهود عهدهم مع رسول الله وأصبح المسلمون بين عدوّين: داخلي وخارجي. ولما عجزت قريش وحلفاؤها عن دخول المدينة عادوا أدراجهم إلى مناطقهم، وعاد المسلمون ليصبحوا وجهاً لوجه أمام يهود بني قريظة فحاصرهم المسلمون خمس عشرة ليلة استسلموا على أثرها، وبالقضاء على بني قريظة تطهرت الجبهة الداخلية من عدوٍّ شرس شديد البأس، وضعف أمر المنافقين من الأوس والخزرج[2].

وفي العام السادس للهجرة، وبعد أن عقد النبيّ صلح الحديبية مع قريش وتخلّص من يهود المدينة إتجه إلى خارجها لنشر الدعوة الإسلامية في نطاق الجزيرة العربية وخارجها، فأرسل رسله إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ومنهم: عبد الله بن حُذافة السهميّ إلى كسرى، ودِحيّة بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وعمرو بن أمية الضمريّ إلى النجاشي، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمّر الغساني، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الاسكندرية، وجرير بن عبد الله البجليّ إلى ذي الكلاع الحميري وغيرهم. ثم قدمت عليه وفود العرب من كل حدب وصوب، ولكل قبيلة رئيس يتقدمهم[3].

---

(1) حياة محمد ـ محمد حسين هيكل ـ ص 221 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة عشر ـ 1968 ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام ص 501 النص الكامل للصحيفة.

(2) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص 34.

(3) تاريخ اليعقوبي ـ المجلد الثاني ص 77 وما بعدها ـ دار صادر ـ بيروت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتح مكة

وبما أن قريش نقضت اتفاق الحديبية حينما أقدم حلفاؤهم بنو بكر بن عبد مناة على الاعتداء على بني خزاعة حلفاء الرسول، وقتلهم بعض أفراد من خزاعة، فاستغاث هؤلاء بالرسول الذي وعدهم بالنصرة، وعزم على فتح مكة فأعدّ جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل، وتدخّل الوسطاء فقال لهم رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن». ودخل جيش المسلمين مكة من عدة جهات، وعفا الرسول عن عامة قريش إلاّ بعض الأنفار وقال لهم: «يا معشر قريش، ما ترون أنّي فاعل بكم؟» قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1]. ثم أمر بتحطيم الأصنام، وبفتح مكة سقط المعقل الرئيسي للوثنية في جزيرة العرب، وبالتالي تحققت المرحلة الأولى الهامة من توحيد العرب بالإسلام، ولم يمض عام واحد حتى امتد سلطان الدولة الإسلامية إلى جميع بلاد العرب.

وبدخول قبائل العرب في الإسلام في عامي تسعة وعشرة من الهجرة لم يبق إلاّ مناذرة الحيرة وغساسنة الشام، فأمر الرسول بإنفاذ حملة لتأديبهم لأنه سبق لشرحبيل الغساني أن قتل رسول النبيّ، وجعل على قيادتها أسامة بن زيد بن حارثة ولكن لم يقدّر لهذه الحملة أن تحقق مهمتها في حياة الرسول بل تم ذلك في بداية خلافة أبي بكر، ثم حجّ النبي حجّة الوداع وقد أدّى مناسكها على النظام الإسلامي وكان يرافقه عدد ضخم من الحجاج، وخطب في الناس خطبته الأخيرة المشهورة بخطبة الوداع وعاد إلى المدينة سنة إحدى عشرة للهجرة ثم مرض مرضه الذي مات فيه وذلك يوم الاثنين للنصف من شهر ربيع الأول ودفن ليلة الأربعاء[2]. بعد أن أكمل رسالته، وأتم الله نعمته على المسلمين.

---

(1) مروج الذهب ـ المسعودي 290/2.

(2) تاريخ الطبري 543/1 ـ تاريخ اليعقوبي 113/2.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثالث

القرآن الكريم

الفصل الأول

نزوله، جمعه، تفسيره، أهم علومه

وصل العرب في أواخر العصر الجاهلي إلى مستوى رفيع بفصاحتهم وبلاغتهم في منثور الكلام ومنظومه. وكان الخطباء والشعراء يتساجلون في الأسواق والندوات والمناسبات ونصّبوا المحكمين ليفصلوا فيما بينهم، وظلّوا هكذا حتى بزغ فجر الإسلام.

ومن فضل الله على عباده أنه لم يتركهم على فطرتهم بل كان يبعث إليهم بين الفترة والفترة رسولاً يحمل من الله كتاباً، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وينذرهم من سوء العاقبة إذا حادوا عن الطريق المستقيم. وظلت الانسانية في تطورها ورقيها الفكري، والوحي يعاودها بما يناسبها ويحلّ مشاكلها الوقتية في نطاق قوم كل رسول، حتى أرسل محمداً ﷺ، ليكمل صرح إخوانه الرسل الباقين، وأوحى إليه بالقرآن الكريم، رسالته إلى البشرية جمعاء. وقد سمّاه الله بأسماء كثيرة منها:ـ القرآن: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ الاسراء: الآية 9.

ـ الكتاب: ﴿**تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين**﴾ السجدة: الآية 2.

ـ الفرقان: ﴿**تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾. الفرقان: الآية 1.

ـ الذكر: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾. الحجر: الآية 9.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- التنزيل﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾. الشعراء: الآية 192.

وإن اسم القرآن هو الأغلب والأكثر شهرة.

فالقرآن هو كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم عليم. فيه آيات محكمات تنظم حياة الإنسان في الدنيا، وترشده إلى سعادة الآخرة، فهي تقضي على الأوهام الباطلة، والأساطير الكاذبة، والعبادات الضالّة، وبفضلها انتقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى، والطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض إلى حياة الطمأنينة والعدل والاخاء.

ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين، حيّر عقول البلغاء والفصحاء لما فيه من الاعجاز، وقد اعترف بذلك من يُشهد لهم بالفهم العميق والإدارك الكبير للّغة العربية وأغوارها، فقد تحيّر الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن، وكان لم يزل على الوثنية،، حينما اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، فقد نفى أن يكون محمد ﷺ كاهناً أو مجنوناً أو شاعراً أو ساحراً، ولكنه قال: والله إنّ لقوله لحلاوة[1].

أ ـ نزول القرآن

كان الرسول ﷺ يتعبّد بغار حراء، فأتاه جبرائيل فقال: يا محمد أنت رسول الله، قال رسول الله ﷺ: فجثوت لركبتي ثم رجعت ترجف بوادري (لحمة بين المنكب والعنق)، فدخلت على خديجة فقلت: زمّلوني زمّلوني! ثم ذهب عنّي الرّوع، ثم أتاني فقال: يا محمد أنت رسول الله، قال: لقد هممت أن أطرح نفسي من حالقٍ، فتبدّى لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد أنا جبرائيل، وأنت رسول الله، قال: إقرأ، قلتُ: وما أقرأ؟ قال: فأخذني فغتّني ثلاث مرّات حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: اقرأ باسم ربّك الّذي خلق...الخ﴾[2]. فقرأت.. ثم تتابع الوحي بعدُ وحميَ. ثم إنّ أول ما نزل عليه من القرآن بعد إقرأ:

---

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام ص 270.

(2) سورة العلق ـ الآية 1.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«ن والقلم وما يسطرون»، و«يا أيّها المدثر» و«الضحى»[1].

وظل جبرائيل عليه السّلام يلقّنه القرآن الكريم طيلة مدة الدعوة الإسلامية من حياته ومدتها حوالى ثلاث وعشرين سنة، وفي القرآن مائة وأربع عشرة سورة، منها القِصار كسورة الإخلاص. ومنها الطّوال كسورة البقرة، وسورة آل عمران وسورة النساء وغيرها. وآخر آية نزلت على أشهر الأقوال: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**.

وسور القرآن قسمان: سور مكيّة نزلت في مكة وسور مدنيّة نزلت في المدينة. وأشهر الأقوال في تعريف المكي والمدنيّ: أن المكيّ ما نزل قبل الهجرة في مكة أو في ضواحيها، كمنى وعرفات والحديبيّة. ومنه ما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغها النبي ﷺ؛ والمدني ما نزل بعد الهجرة في المدينة أو في ضواحيها، كبدر، وأُحد وسَلْع، ومنها ما نزل في مكة عام الفتح، أو عام حجّة الوَداع، وما نزل في سفر من الأسفار بعد الهجرة[2].

لقد قضت حكمة الله عزّ وجلّ أن يُنزّل القرآن الكريم على رسوله ﷺ منجّماً أي على أقساط طيلة ثلاثة وعشرين عاماً حتى تتهيّأ النفوس البشرية لتلقّي هذا الفيض الالهي، وكان أول نزوله في شهر رمضان: **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس﴾** وفي ليلة معلومة منه هي ليلة القدر: **﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾**. وكان نزوله بلغة عربية: **﴿إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً﴾**، إنه كلام الله أوحى به عن طريق جبريل عليه السّلام إلى النبي محمد ﷺ ليبلّغ آخر رسالات ربّه إلى الناس كافّة.

وكان الرسول يأمر بكتابة كلّ ما ينزّل من القرآن وقت نزوله، واتخذ لذلك جماعة من كرام الكاتبين مثل: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وزيد بن ثابت وأُبَيّ بن كعبٍ، ومضى كثير من كَتبة الصحابة يكتبونه لأنفسهم،

---

(1) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير 48/2 وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد 196/1.

(2) صفوة البيان لمعاني القرآن ـ حسنين محمد مخلوف ـ ص ز ـ الكويت ـ الطبعة الثالثة 1987.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أنهم جميعاً لم يعوّلوا على كتابته فقط إنما عوّلوا أولاً على حفظه وأخذه شفاهاً عن الرسول الأمّيّ، الذي كان يحفظه ويتلوه على المسلمين وساروا على سنته يتحفظونه ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار. وكانت الكتابة تتم على سعف النخل والرّقاع وقطع الأديم وعظام ألواح الشناة والإبل وأضلاعها[1].

ب ـ توثيق النص القرآني (جمعه)

مرّ توثيق النص القرآني في مراحل ثلاث:

1 ـ **توثيقه في عهد الرسول ﷺ**: كانت الخطوة الأولى لتوثيق النص القرآني، كتابته حين النزول ومنع كتابة شيء سواه حتى لا يختلط به ما ليس منه يدلّ على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري أن النبيّ ﷺ قال: «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه». وبهذا النهي توقّف الصحابة عن كتابة أحاديث الرسول ﷺ صيانة للقرآن. بيد أنه لم يجمع في مصحف، لأنّ الحاجة لم تكن ماسة إليه إذ ذاك، حيث كان الصحابة يتسابقون في حفظه ويتبارون في كتابته، والرسول عليه السّلام بين ظهرانيهم يتلو عليهم آياته، ويبيّن لهم أحكامه وقد تمّ نزول القرآن بوفاته[2].

2 ـ **توثيقه في عهد أبي بكر رضي الله عنه**: لما انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربّه، وقامت حروب الردّة وقتل فيها كثير من القرّاء من الصحابة وخاصة في يوم اليمامة حيث قتل منهم زهاء سبعين، هال هذا الأمر عمر بن الخطاب فذهب إلى الخليفة أبي بكر وقال له: يا خليفة رسول الله، إن حملة القرآن قد قتل أكثرهم يوم اليمامة، فلو جمعت القرآن، فإنّي أخاف عليه أن يذهب حملتُه، فاقتنع ودعا زيد بن ثابت وطلب منه جمع القرآن وقال له: «إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فاجمعه. قال زيد: فوالله لئن كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقلَ عليّ مما أمرني به

---

(1) تاريخ الاسلام ـ حسن ابراهيم حسن ـ ص 498 ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة السابعة 1964. وانظر تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ شوقي ضيف ـ ص 25 ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الرابعة 1963.

(2) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ـ عبد العال سالم مكرم ـ ص 2 ـ دار المعارف بمصر 1965.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من جمع القرآن، فقلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبّعت القرآن أجمعه من الرِّقاع، واللُّخاف (حجارة بيض رقاق)، والأكتاف، والعُسُب، وصدور الرجال... فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفّاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم[1]. وهنا نشير إلى أن الصحف غير المصحف المجموع بين دفتين.

3 ـ توثيقه في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه: لاحظ حذيفة بن اليمان، قائد عثمان في غزو أذربيجان، اختلاف المسلمين في قراءة القرآن، فأشار على الخليفة عثمان بن عفان بتدوين مصحف يقرؤه المسلمون، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب أن أرسلي إلينا بالمصحف ننسخ منه نُسَخاً، ثم نردّه إليك، فأرسلت به إليه، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقال عثمان للرهط القرشيين، وهم الثلاثة الأخيرون: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، فصدعوا بأمره. وردّ عثمان مصحف أبي بكر إلى حفصة، وطابت نفسه، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القرّاء إلى الأمصار، ومضى القرّاء يُقرئون الناس القرآن على حَرْف هذا المصحف الإمام، غير أنّ فروقاً حدثت بينهم في القراءة داخل ذلك الحرف، وهي المعروفة بالقراءات، وقد وقع إجماع المسلمين على سبع منها وهي قراءات: ابن عامر، وابن كثير، وعاصم، وأبي عمرو بن العلاء، وحمزة، ونافع، والكسائي.

وواضح مما تقدم أن القرآن أحيط بسياج متين من المحافظة على نصّه محافظة بالغة، إذ كانت آياته تُكتب فور نزولها، وكان الصحابة يكتبونها ويحفظونها ويتلونها في صلواتهم وعباداتهم مراراً ليلاً نهاراً، وسرعان ما جمعه أبو بكر وأتبعه عثمان بمصحفه، وبعث بنسخ منه إلى مختلف الأمصار الإسلامية[2].

---

(1) حياة الصحابة ـ محمد يوسف الكاندهلوي 369/2 دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الثانية 1983.

(2) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ شوقي ضيف ص 26.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصفوة القول إنّ الله سبحانه وتعالى شاء ألاّ تعبث بالقرآن الكريم يد التحريف والتبديل فقال في كتابه العزيز: ﴿**إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[1]. وقال: ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد**﴾[2].

ج ـ تفسير القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم بأسلوب بهر العربَ رونقُه، وملك نفوسَهم ما فيه من جمال اللفظ، وبراعة الصورة وسموّ البيان، فدُهشوا وتحيّروا وأطالوا النظر وأكثروا الالتفات إلى ما فيه من حسن رائع، وإعجاز قاهر، وأخذوا البحث والتدقيق فيه لتتضاعف معرفتهم في مزاياه العظيمة وأسراره الكثيرة.

وربّ قائل يقول: إذا كان القرآن عربيّاً، ونزل على قوم رُبّوا في الفصاحة ليتحدّى فصاحتهم، فكيف تغمض بعض ألفاظه عليهم، وكيف يقفون إزاءها مستفسرين مستوضحين؟

للإجابة على هذا التساؤل نقول: إنّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ولغة العرب لا يستوي في فهمها جميع العرب، ففيها الغريب، وفيها السهل، وفيها ما كثر جريانُه على الألسنة وفيها ما قلّ. لذلك كان لا بدّ من وجود تفاوت في الفهم بين العرب لمضمون آيات القرآن الكريم، والدليل على ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿**وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم**﴾[3].

لذلك نرى منذ نزول القرآن أن الحاجة دعت الرسول ﷺ إلى تفسير بعض آياته، فكان الصحابة يرجعون إليه ليفسّر لهم بعض ما يتوقّفون فيه، وكان هو يبادر أحياناً فيبيّن لهم بعض الآيات، وهذا تنفيذ لأمر الله في كتابه الكريم: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم لعلّهم يتفكرون**﴾[4].

---

(1) سورة الحجر ـ الآية 9.
(2) سورة فصلت ـ الآية 42.
(3) سورة آل عمران ـ الآية 7.
(4) سورة النحل ـ الآية 44.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد رُوي عن عائشة أنها قالت: «لم يكن النبي ﷺ يفسّر شيئاً من القرآن إلاّ آيات تُعدّ علّمهنّ إيّاه جبريل». وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلّمنا القرآن، والعلم، العمل جميعاً»[1].

وفي حديث معاذ أنّ النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له: كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟ قال:

أقضي بما في كتاب الله. قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنّة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم يكن في سنّة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو. قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفّق رسول الله لما يرضي رسولَ الله[2].

يتبيّن لنا أن الرسول ﷺ كان المفسّر الأول لآيات القرآن الكريم، يوضّح لصحابته أوامر الله ونواهيه، وهو الذي أرسله الله للناس بشيراً ونذيراً، وبما أنه يوجد في القرآن آيات لا يعلم تأويلها إلاّ الله والراسخون في العلم، فأصبح لزاماً على هؤلاء أن يفسّروا تلك الآيات ونحوها لمن هم أقلّ منهم علماً ومعرفة.

لا شك أن الصحابة كانوا يرجعون إلى النبي لتوضيح ما أُشكل عليهم من تفسير لآيات القرآن طالما هو موجود بين ظهرانيهم، ولكن بانتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، ماذا حلّ بالمسلمين؟ وهل استمرّوا بالتفسير والاجتهاد، خاصة وأن الفتوحات الإسلامية قد استمرت وانضوى تحت لواء المسلمين شعوب من مناطق شتّى ويتكلمون بلغات مختلفة؟

الصحابة والتفسير:

انقسم صحابة رسول الله ﷺ بصدد تفسير القرآن الكريم إلى قسمين:

---

(1) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ـ عبد العال سالم مكرم ـ ص 216 ـ دار المعارف بمصر 1965.

(2) النظم الإسلامية ـ صبحي الصالح ـ ص 205 ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1980.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أ ـ قسم متحرّج، يخشى خطر التفسير، فقد تُفسّر الآية بمعنى يختلف عن المعنى الأصلي المقصود، وفي هذا إثم كبير، وعلى رأس هذا القسم: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. أمّا أبو بكر فقد رُوي أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿وكان الله على كل شيءٍ مُقِيتًا﴾[1] فقال: «أيّ سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم».

وأما عمر فقد رُوي أنه قرأ على المنبر: ﴿وفاكهةً وأبّاً﴾. فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: لعمرك، إنْ هذا هو التكلّف يا عمر»[2].

ب ـ وقسم لم يتحرج من التفسير وذلك استناداً إلى قوله تعالى: ﴿لا يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم﴾. فهم يعتبرون أنه سُمح لأولي العلم بالدين وأصوله أن يُفسروا للناس آي الذكر الحكيم، وهم الذين يُسمّيهم الله عز وجل باسم الراسخين في العلم. وعن السيوطي في كتابه الاتقان، أنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون، وابن مسعود، وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير وإبن عباس؛ ويصرّح بأن الرواية عن أبي بكر وعمر وعثمان نَزْرة، أما علي فقد رُوي عنه كثير؛ وابن عباس أكثر الصحابة تفسيراً وقد حمل تفسيره كثيرون من التابعين[3].

وكان الصحابة على العموم، أقدر الناس على فهم القرآن لأنه نزل بلغتهم، ولأنهم شاهدوا الظروف التي نزل فيها القرآن. ومع هذا فقد اختلفوا في الفهم، على حسب اختلافهم في أدوات الفهم، وذلك:

1 ـ أنهم كانوا يعرفون اللغة العربية على تفاوت فيما بينهم، وإن كانت العربية لغتهم، فمنهم من كان يعرف كثيراً من الأدب الجاهلي، ويعرف غريبه، ويستعين بذلك في فهم مفردات القرآن ومنهم من كان دون ذلك، فكان فيهم القروي والبدوي، والصانع والتاجر، فلا غرو إذا تفاوتوا في علمه بأحكام الدين وتشريعاته.

---

(1) سورة النساء ـ الآية 85.

(2) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ـ عبد العال سالم مكرم ص 217.

(3) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ شوقي ضيف ص 29.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

2 ـ كذلك كان منهم من يلازم النبيّ ﷺ ويقيمُ بجانبه، ويتعرّفُ على الأسباب التي دعت إلى نزول الآية، ومنهم من ليس كذلك، ومعرفة أسباب النزول من أكبر ما يعين على فهم المقصود من الآية، والجهل بها يوقع في الخطأ.

3 ـ كذلك اختلاف الصحابة في معرفة عادات العرب في أقوالهم وأعمالهم، فمن عرف عادات العرب في الحج في الجاهلية، استطاع أن يفهم آيات الحج أكثر ممن لا يعرف.

4 ـ ومثل هذه المعرفة، معرفة ما كان يفعله اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول الآيات، ففيها إشارةٌ إلى أعمالهم وردٌّ عليهم، وهذا لا يتم فهمه إلاّ بمعرفة ما كانوا يفعلونه[1].

تطور التفسير

اتجه المفسرون في تفسير آيات القرآن الكريم اتجاهين:

الأول: التفسير بالمأثور، وهو ما أُثر عن النبي ﷺ إذ أنه كان قد بيّن للناس ما نزل إليهم من آيات في القرآن، وقد حفظ الصحابة هذا البيان، ورواه عنهم غيرهم، فكانوا إذا سُئلوا عن مشكل لفظ أو معنى مبهم، أفْتوْهم بما رَوَوْا عن الرسول ﷺ في هذا اللفظ أو هذا المعنى. ويسمى هذا أيضاً تفسيراً نقليّاً ودعامته الرواية عن النبي ﷺ.

الثاني: التفسير بالرأي: وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل، وحصل هذا التفسير نتيجة لامتزاج الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية بسبب الفتوح الإسلامية، وهو الذي يكون مجاله العقل، وميدانه الفكر وسلاحه الاستنباط والمنطق والأدلة.

وما نُسب إلى كلّ السابقين من تفسير لا يُقاس إلى ما نُسب لابن عباس، فهو أكثر الصحابة تفسيراً، وهو يُعدّ المؤسس الحقيقي لعلم التفسير، فهو الذي نهجه ووضع أصوله، واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب في قصص الأنبياء، وأنه كان يعتمد على الشعر الجاهلي في تفسير بعض الألفاظ، فقد ورد عن أبي

---

(1) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ص 197.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صالح قال: سمعت ابن عباس ينشد للناس هذا البيت في قوله عزّ وجلّ:

﴿يوم تُبدّل الأرض غير الأرض﴾[1].

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت أعرف

وعن ابن أبي مليكة قال: سُئل ابن عباس عن ﴿الليل وما وسق﴾[2]. فقال: وما جمع، ألم تسمع قول الشاعر:

إنّ لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقات لو يجدن سائقاً

وقد حمل تفسير ابن عباس كثير من التابعين أمثال مجاهد، وعطاء، وعلي بن أبي طلحة، وقد حمل ابن جرير الطبري في تفسيره الكبير ما أُثر عنه وعن الصحابة الأولين في تفسير الذكر الحكيم[3].

د ـ أهم علوم القرآن

القرآن رسالة الله إلى الإنسانية جمعاء، جاء به جبريل إلى النبي محمد ﷺ مبشراً ونذيراً وهادياً إلى الصراط المستقيم: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[4]. وبما أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وعليه فلا نبيّ بعده، والقرآن هو آخر رسالة من الله إلى عباده، فلا غرو أن يأتي القرآن وافياً بجميع مطالب الحياة الإنسانية، على الأسس الأولى للأديان السماوية ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[5].

لقد تعهّد الله عزّ وجلّ بحفظ القرآن: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾[6]. وتحدّى العرب وغيرهم، وهم أرباب الفصاحة والبيان، وقد نزل

---

(1) سورة ابراهيم ـ الآية 48.

(2) سورة الانشقاق ـ الآية 17.

(3) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ شوقي ضيف ص 29 وانظر القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ـ عبد العال مكرم ص 217.

(4) سورة الفرقان ـ الآية 1.

(5) سورة الشورى ـ الآية 13.

(6) سورة الحجر ـ الآية 9.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بلسانهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا: ﴿**قل فأتوا بسورة مثلِه وادعوا من استطعتم من دون الله**﴾[1].

وبما أن القرآن الكريم يعني المسلمين قبل غيرهم من شعوب الأرض، وهو دستورهم في كل ما يحيط بتصرفاتهم في الحياة الدنيا، مرشدهم لبلوغ الجنة في الآخرة، لذلك كان من البديهي أن ينكبّ المسلمون على دراسته دراسة دقيقة وفهم معاني آياته ليكونوا على بيّنة من أمرهم، فكانوا يعودون إلى الرسول ﷺ لشرح ما يتعذّر عليهم فهمه، وحرصوا كذلك على العمل به والوقوف عند أحكامه، فكان علمهم مقروناً بالعمل.

وبوفاة الرسول ﷺ استمر الصحابة يتناقلون معاني القرآن وتفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم، لتفاوت قدرتهم على الفهم، وتفاوت ملازمتهم للرسول ﷺ وتناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين. تلك الدراسات والبحوث نتج عنها ما نسمّيه بعلوم القرآن. والمراد بعلوم القرآن: العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول، وجمع القرآن وترتيبه، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن. وبما أنه سبق وتحدثنا عن جمع القرآن وتفسيره سنحاول التعرف بإيجاز على بقية علوم القرآن مبتدئين بمعرفة المكي والمدني.

أ ـ المكّي والمدني

أولى الصحابة والتابعون ومن جاء بعدهم عناية فائقة في ضبط منازل القرآن آية آية، ضبطاً يحدد الزمان والمكان، وهذا الضبط عماد قوي في تاريخ التشريع الإسلامي، يستند إليه الباحث في معرفة أسلوب الدعوة، وألوان الخطاب، والتدرّج في الأحكام والتكاليف.

وقد اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسيين: المنهج السماعي النقلي، والمنهج القياسي الاجتهادي.

1 ـ المنهج السماعي النقلي يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة

---

(1) سورة يونس ـ الآية 38.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذين عاصروا الوحي، وشاهدوا نزوله، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه، ومعظم ما ورد في المكي والمدني من هذا القبيل، ولم يرد عن رسول الله ﷺ في ذلك قول لأنّه لم يُؤمر به.

2 ـ المنهج القياسي الاجتهادي يستند إلى خصائص المكي، وخصائص المدني، فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مدنيّة، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مكّية، وإذا وُجد في السورة خصائص المكي قالوا إنها مكية، وإذا وجد فيها خصائص المدني قالوا إنها مدنية، وهذا قياس اجتهادي.

وللعلماء في الفرق بين المكي والمدني ثلاثة آراء اصطلاحية، كلٍ رأي منها بُني على اعتبار خاص:

الأول: اعتبار زمن النزول، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة.

الثاني: اعتبار مكان النزول، فالمكي ما نزل بمكة وما جاورها: كمنى وعرفات والحديبية، والمدني ما نزل بالمدينة وما جاورها كأُحد وقباء وسلْع.

الثالث: اعتبار المخاطب، فالمكي: ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة. وينبني على هذا الرأي عند أصحابه أنّ ما في القرآن من قوله تعالى: يا أيها الناس، مكي؛ ـ وما فيه من قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا، مدني[1].

والآن ما هي المميزات الموضوعية لكلّ من المكي والمدني؟

أولاً ـ المكي: لبث النبي ﷺ ما يقرب من ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة وهي المدة من بعثته إلى هجرته، وقد اتجه الوحي في هذه الفترة إلى ناحية العقيدة والأخلاق، ولم يتعرض إلى الأحكام العملية إلاّ قليلاً، وغالباً

(1) مباحث في علوم القرآن ـ منّاع القطّان ـ ص 51 وما بعدها (بتصرف) ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة التاسعة عشر ـ 1983.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بشكل كلّي، والسبب في هذا النهج هو أن العقيدة هي الأساس الأول لكلّ ما تأتي به الشريعة من أحكام وتفصيلات، فلا بدّ إذن من إصلاحها وتنقيتها من الشوائب والأباطيل، وجعلها قائمة على الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر. وهكذا كانت آيات القرآن تنزل موضّحة هذ المعنى بالدليل والبرهان، فهي تارة منذرة من النار وعذابها، وطوراً مرغّبة بالجنة ونعيمها، وتجادل المشركين بالبراهين العقلية، والآيات الكونية، وتفضح جرائمهم في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلماً، ووأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات. وتذكر لهم قصص الأنبياء السابقين مع شعوبهم لتكون عبرة لمن يعتبر.

ويمتاز أسلوب الآيات المكية بقصر الفواصل مع قوة الألفاظ وإيجاز العبارة، ويؤكد المعنى بكثرة القسم، مما يصعق القلوب ويشتد قرعه على المسامع.

ثانياً ـ المدني: بعد أن استقرّ الرسول ﷺ في المدينة مع صحابته من المسلمين، كان لا بدّ من إقامة تنظيم اجتماعي وسياسي على أساس الدين الجديد، فكانت الآيات القرآنية تركّز على العبادات والنواحي العملية، سواء منها ما اتصل بحياة الأفراد أو بحياة الجماعة، والجهاد وتنظيمات الأسرة من زواج وما يترتب عليه، والميراث، والعلاقات بين الحاكم والمحكوم، وعلاقة الدولة الإسلامية مع غيرها، وعلاقة المسلمين مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والكشف عن سلوك المنافقين، وباختصار لم يترك التشريع الإلهي جانباً من جوانب الحياة إلاّ جاء بتنظيم دقيق محكم له.

ويمتاز أسلوب الآيات المدنية، بطول المقاطع والنهج التقريري للشريعة وتوضيح أهدافها.

ب ـ الناسخ والمنسوخ

سبق أن ذكرنا أنّ الوحي في مرحلته الأولى على النبي محمد ﷺ في مكة، اتجه إلى ناحية العقيدة، وفي المرحلة الثانية، في المدينة، على العبادة والمعاملة، وبما أن العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية، فقد اتفقت دعوة الرسل جميعاً إليها، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿**وما**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾[1]. أما العبادات والمعاملات فإنّها تتفق في الأسس العامة التي تهدف إلى تهذيب النفس والمحافظة على سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون والإخاء، إلاّ أنّ مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها، وما يلائم قوماً في عصر قد لا يلائمهم في آخر، ومسلك الدعوة في طور نشوئها وتأسيسها يختلف عن شرعتها بعد التكوين والبناء، فحكمة التشريع في هذه غيرها في تلك، فلا غرابة في أن يرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد، وهذا ما حصل في بعض الآيات القرآنية، والذي نطلق عليه: الناسخ والمنسوخ.

والنسخ معناه رفع الحكم السابق بحكم لاحق، وهو إمّا أن يكون إلى بدل وإمّا أن يكون إلى غير بدل. والنسخ إلى بدل: إمّا إلى بدل أخف، وأمّا إلى بدل مماثل، وإمّا إلى بدل أثقل:

1 ـ النسخ إلى غير بدل: كنسخ الصدقة بين يدي نجوى رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة**﴾[2] وهذه الآية نُسخت بقوله تعالى: ﴿**أأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾[3].

2 ـ النسخ إلى بدل أخفّ: يمثلون له بقوله تعالى: ﴿**أُحلَّ لكم ليلة الصيام الرّفث إلى نسائكم**﴾[4]. فهي ناسخة للآية الكريمة: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾[5]. ومُقتضى هذه الآية، الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلّوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية.

3 ـ النسخ إلى بدلٍ مماثل: كنسخ التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس

---

(1) سورة الأنبياء ـ الآية 25.
(2) سورة المجادلة ـ الآية 12.
(3) سورة المجادلة ـ الآية 13.
(4) سورة البقرة ـ الآية 187.
(5) سورة البقرة ـ الآية 183.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالتوجّه إلى الكعبة في قوله عزّ وجلّ: ﴿**فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام**﴾[1].

4 ـ النسخ إلى بدل أثقل: كنسخ الحبس في البيوت في قوله تعالى: ﴿**واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعةً منكم فإن شهدوا فأمسكوهنّ في البيوت حتى يتوفاهنّ الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلا**﴾[2]. بالجلد، في قوله تعالى: ﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذْكم بهما رأفةٌ في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخِر ولْيشهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين**﴾[3]. وهذا هو حكم الزاني البكر أما الزّاني الثيّب فيرجم حتى الموت، وقد رجم النبي ﷺ ماعزَ بن مالك الأسلميّ والغامديّة، وكانا محصنين[4].

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهميّة كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين حتى لا تختلط الأحكام، ولذلك وردت آثار كثيرة في الحثّ على معرفته، فقد رُوي أنّ عليّاً رضي الله عنه مرّ على قاضٍ فقال له: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا. فقال عليّ: هلكت وأهلكت[5].

ج ـ أسباب النزول

ومن علوم القرآن أيضاً أسباب النزول، والمقصود أسباب نزول الآيات القرآنية، فالمعروف أن القرآن نزل أصلاً لهداية الناس إلى الطريق المستقيم، وليقيم لهم أسس الحياة الفاضلة في الدنيا وبلوغ الجنّة في الآخرة، ولكن ثمة آيات نزلت في مناسبات معيّنة وذلك عقب واقعة أو سؤال، لذلك اعتنى الباحثون في علوم القرآن بمعرفة سبب النزول، ولمسوا شدة الحاجة إليه في

---

(1) سورة البقرة ـ الآية 44.

(2) سورة النساء ـ الآية 15.

(3) سورة النور ـ الآية 2.

(4) صفوة البيان لمعاني القرآن ـ حسنين محمد مخلوف ـ ص 110 ـ الطبعة الثالثة ـ الكويت 1987.

(5) مباحث في علوم القرآن ـ مناع القطان ـ ص 233.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفسير القرآن لأنه يساعد على كشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات في تفسيرها عندما يُعرف سبب نزولها. ولا يعني هذا أن يلتمس الباحث لكلّ آية سبباً، فإنّ القرآن لم يكن نزوله وقفاً على الحوادث والوقائع، أو على السؤال والاستفسار، بل كان القرآن ينزل ابتداءً بعقائد الإيمان وواجبات المسلم، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد وحياة الجماعة.

د ـ المحكم والمتشابه

ومن علوم القرآن أيضاً المُحْكَم والمتشابه، ففي القرآن الكريم آيات محكمات وهي تلك التي يُعرف المعنى المراد منها. وأُخر متشابهات، وهي ما استأثر الله تعالى بعلمها كقيام الساعة والحروف المقطّعة في فواتح السور ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى * كل شيء هالك إلا وجهه * يد الله فوق أيديهم**﴾ وقال تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾. فانطلاقاً من هذه الآية الكريمة يرى جمهور أهل السنّة والأئمة الأربعة أنه يجب الإيمان بها وتفويض علم معناها المراد منها إلى الله تعالى، وترك تأويلها مع تنزيهه تعالى عن حقيقتها، لاستحالة مشابهته تعالى للحوادث (استوى، وجهه، يد). وقال الإمام الرازي: إنّ الذي اختاره الأئمة المحقّقون من السلف والخلف، تَرْك الخوض في تعيين التأويل، بعد إقامة الدليل القاطع على أنّ حملَ اللفظ على ظاهره محال.

ومن المتشابه: الحروف المقطّعة في أوائل السور، فقد افتُتحت تسع وعشرون سورة من القرآن بنصف أسماء حروف المعجم، وهي: الألف واللام، والميم والصاد، والراء والكاف، والهاء والياء، والعين والطاء، والسين والحاء، والقاف والنون. ومنها مثلاً: ص، حم، ألم كهيعص، والمختار فيها: أنها من الأسرار التي لا يعلم تأويلها إلاّ الله تعالى. وعن أبي بكر الصديق: في كلّ كتاب سِرٌّ، وسرّه في القرآن أوائل السور[1].

---

(1) عن صفوة البيان في علوم القرآن ـ حسنين محمد مخلوف ـ ص ج ـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني
الحديث

أ ـ روايته ورواته

السُنّة في الشرع الإسلامي يُراد بها ما أَمر به النبي ﷺ، ونهى عنه وندَب إليه قولاً وفعلاً بما لم ينطق به الكتاب العزيز. فالحديث من السنّة أو هو عينها لذلك قيل: السنّة أو الحديث هو ما ورد عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير. وبعد عصر الرسول ضُمّ إلى الحديث ما ورد عن الصحابة، فالصحابة كانوا يعاشرون النبي ﷺ ويسمعون قوله ويشاهدون عمله، ويحدّثون بما رأوا وما سمعوا، وجاء التابعون بعدُ فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا فكان من الأخبار عن رسول الله وصحابته «الحديث»[1].

وأهميّة الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامي وأحكامه مجملة دون تفصيل، وأن الحديث هو الذي يفصّلها، فالقرآن الكريم لم يذكر تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام، بل اكتفى بمثل قوله: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾. وفصّل الحديث أوقات الصلاة وكيفيّاتها، كما فصّل القواعد والأسس التي يجب اتباعها في جمع الزكاة وتوزيعها. فالرسول هو الذي بيّن أحكام الشريعة وصوّرها عملياً كما صوّر المبادىء الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية، ووضّح ما أُبهم من الآيات القرآنية، بما أُثر عنه من فصاحة وبيان، وبذلك أصبحت رسالته واضحة ناصعة، وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى.

قال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ إلاّ وجدت

---

(1) لسان العرب ـ ابن منظور ـ مادة سنن ـ 225/13 وانظر فجر الاسلام ـ أحمد أمين ص 208 ـ والعصر الإسلامي ـ شوقي ضيف ص 34.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصداقه في كتاب الله».. وقال ابن برهان: ما قال النبي ﷺ من شيء إلاّ وهو في القرآن أو فيه أصله، قرُبَ أو بعد فَهِمَه من فهمه وعميَ عنه من عمي، وكذا كلّ ما حَكم به أو قَضى به، وإنما يُدرِكُ الطالبُ من ذلك بمقدار اجتهاده وبذل وسعه، ومقدار فهمه[1].

لذلك نرى أنه للحديث قيمة كبرى في الدين تلي رتبة القرآن، إذ أنّ الحديث هو مرجع للمشرّعين منه يستمدون أحكامهم وفتاواهم، فاقتضى ذلك جميعه العنايةَ بالحديث.

والمعروف أن رسول الله ﷺ اتّخذ كتبةً للوحي يكتبون آيات القرآن عند نزولها، ولكنه لم يتخذ كتبةً يكتبون ما ينطق به من غير القرآن، بل إنه نهى عن تدوين الحديث بقوله ﷺ: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدّثوا عني فلا حرج، ومن كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار». وقد رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص من أنه كان يكتب كلّ ما سمع من رسول الله؛ وعلى كل حال لم يكن تدوين الحديث شائعاً في عصر الرسول وذلك خشية التباس القرآن بالحديث[2].

وكان الصحابة يروون حديث رسول الله ﷺ في حياته وكان هو نفسه يحثهم على ذلك، وهذا ما يستفاد من مضمون الحديث السابق «حدثوا عني فلا حرج».

ولما توفي الرسول كان بين أيدي المسلمين كتاب مدوّن، هو القرآن، وأحاديث غير مدوّنة تُروى في الغالب من الذاكرة، وكان الصحابة في الأمصار الإسلامية يُبلّغون كتاب الله وسنّة رسوله وكادوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أفعاله وأقواله إلاّ أحصوها وتناقلوها. حتى إذا ذهب الصحابة خلفهم التابعون يحكون ما سمعوه منهم، وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل،

---

(1) التراتيب الإدارية 200/2.

(2) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص 209 ـ وانظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي 749/8.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالمحدّث يقول سمعت من فلان عن فلان، ومن ثم تكوّن سند الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من رُواته، وقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند بسبب تفرق الصحابة في الأرض، وبذلك تعدد طرق رواية الحديث.

ونشأ من عدم تدوين الحديث وصعوبة حصر ما قاله رسول الله ﷺ أو فعله في مدة ثلاثة وعشرين عاماً من بدء الوحي إلى الوفاة أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته إلى الرسول، وقد يكون ذلك لحسن نيّة وقد يكون لسوء نيّة. لذلك قامت طائفة من المسلمين تبحث في ثنايا الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله ﷺ ونتج عن ذلك علم جديد له قوانينه وأساليبه وغاياته عُرف بعلم الحديث.

تهيّب الخلفاء الراشدون من كتابة أحاديث الرسول وكذلك الصحابة والتابعون، وذلك مخافة وقوع اللّبس بينها وبين القرآن الكريم، وكذلك تنفيذاً لطلبه ﷺ «فمن كتب شيئاً عني فليمحه» فكان الاعتماد على المحدثين، وأكثر هؤلاء شهرة بالنسبة إلى كثرة أحاديثهم هم: أبو هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجابر، وأنس بن مالك، وكانوا يروون الأحاديث ويكرهون أن يكتبه سامعُهم واقتدى بهم كثير من التابعين وإن كانت أخذت تظهر عند بعضهم بوادر كتابته. ولكنّه على كل حال لم يدوَّن في القرن الأول للهجرة تدويناً عامّاً، وظل الأمر على ذلك حتى تولّى عمر بن عبد العزيز الخلافة (99 - 101هـ) فأمر بتدوينه. ومن هذا الوقت بدأت حركة جمع الحديث وكان من أئمتها: مالك بالمدينة(159هـ)، وابن اسحاق أيضاً (151هـ)، وابن جريج بمكة (150هـ)[1].

وإنّ تأخر التدوين واعتماد العلماء على ذاكرة الرواة، وحرصهم الشديد على نقل الأحاديث الشريفة بمنتهى الدقّة، دفع هؤلاء إلى التحرّي والتدقيق عند أخذ الحديث ودراسة أحوال الرواة، فنشأ عن ذلك علم «الجرح والتعديل».

---

(1) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ص 221 ـ وانظر محاضرات في علم الحديث والمصطلح ـ عبد الله الشريف ـ ص 10 ـ مكتب كريدية 1973.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى أثر عمليّة جمع الحديث بدأت تظهر مؤلفات فيه من أقدمها وأشهرها: موطأ الإمام مالك، ومسند الإمام الشافعي (204هـ) وغيرها، ومع بداية القرن الثالث الهجري نشطت حركة كتابة الحديث واتجهت همّة بعضهم لتمييز الحديث الذي لا شك في نسبته إلى الرسول ﷺ من الحديث المشكوك في نسبته لأي سبب من الأسباب، وأصبح لكل نوع من الحديث علماً خاصاً مثل: علم الحديث الصحيح، وعلم المرسل وغيرها إذ كتب يحيى بن معين (234هـ) في تاريخ الرجال، ومحمد بن سعد (230هـ) الطبقات، وأحمد بن حنبل (241هـ) العلل والناسخ والمنسوخ، وأشهر الكتب في تلك الفترة هي: صحيح البخاري (256هـ) وصحيح مسلم (261هـ)، وسنن أبي داود (275هـ)، وسنن النسائي (303هـ)، وجامع الترمذي (279هـ)، وغيرها كثير[1].

ب ـ أقسام الحديث:

يقسم الحديث إلى: 1 ـ الصحيح، 2 ـ الحسن، 3 ـ الضعيف، 4 ـ الموضوع.

1 ـ الحديث الصحيح: هو ما اتصّل بسنده، بنقل العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، أو إلى منتهاه من صحابي أو من دونه.

2 ـ الحديث الحسن: هو ما اتصل سنده، بنقل عدل خفيف الضبط، وسلم من الشذوذ والعلّة، وسمي حسناً لحسن الظنّ براويه.

3 ـ الحديث الضعيف: هو الذي لم يجتمع فيه صفات الصحيح ولا صفات الحسن لفقده شروطهما.

4 ـ الحديث الموضوع: هو الكذب المختلق المصنوع. أي كذب الراوي في الحديث النبوي بأن يروي عنه ﷺ، ما لم يقلْه متعمّداً لذلك. وهذا النوع تحرم روايته مع العلم بوضعه سواء كان في الأحكام أو القصص أو الترغيب، ولا بدّ عند ذكره من بيان وضعه.

هذه هي باختصار كليّ تعريفات أقسام الحديث، مع لفت الانتباه إلى أنه لكل قسم منها مبادىء وقوانين مفصّلة تفصيلاً كبيراً، لا مجال لذكرها هنا،

---

(1) محاضرات ـ عبد الله الشريف ص 11.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى لا نبتعد عن موضوعنا الأساسي، ولكل من يريد الاطلاع عليها، فهي متوفرة بكثرة في جميع المكتبات تقريباً، لأن أئمّة المسلمين وعلماءهم أولوا الحديث العناية اللازمة، كيف لا، والحديث هو المصدر العملي للتشريع الإسلامي، فالقرآن هو المصدر الأول للتشريع، والسنّة هي التطبيق العملي للقرآن، وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى الرباط الوثيق بين القرآن والسنّة منها: ﴿**قل إن كنتم تُحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾[1]. و: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[2]. و: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾[3].

إن السنّة توضّح وتبيّن وتحدّد كل مسائل الدين فهي الشرح التطبيقي للقرآن، وتلك منزلة رفيعة ما بعدها منزلة.

---

(1) سورة آل عمران ـ الآية 31.

(2) سورة الحشر ـ الآية 7.

(3) سورة الأنفال ـ الآية 24.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الرابع

الفصل الأوّل

الشعر

أ ـ مكانة الشعر في الجاهلية

إن جزيرة العرب، إقليم ثلاثة أرباعه صحراء مجدبة قليلة السكان، أهله من قبائل البدو الرحّل، وكان النظام السياسي السائد في بلاد العرب قبل الإسلام، إذا استثنينا بعض الممالك الصغيرة في الجنوب والشمال، هو النظام البدائي الذي يقوم على رابطة القرابة والذي تجتمع الأسر بمقتضاه في عشائر وقبائل. وكانت قلّة سبل الاتصال وصعوبتها تُرغم أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم، وكانت سبباً في نموّ روح العزلة فيهم، فالعربَي لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة، وكان خمسة أسداس السكان بدواً رحّلاً يشتغلون بالرعي وينتقلون بقطعانهم من مرعى إلى مرعى حسب فصول السنة وأمطار الشتاء، وكان العربي يُسرع إلى الانتقام لما عساه أن يوجه إليه أو إلى قبيلته من إهانة أو أذى، وكان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في الحرب التي تستعر نارها بين القبائل المختلفة. وكان العربُ قبل الإسلام أميّين محبّين للشعر، مولعين بفصاحة اللسان وصحة الكلام والشعر المختلف المعقد الأوزان[1].

وكان فنّ الشعر، من بين الكلام، شريفاً عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهِد صوابهم وخطئهم وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم، وكانت ملَكَتهُ مستحكمةً فيهم. وكان رؤساء العرب منافسين فيه، وكانوا يقفون بسوق عُكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز جَوْدِه حتى انتهوْا إلى المناغاة في تعليق

(1) عن قصة الحضارة ـ ول ديورانت 6/13 بتصرف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجّهم[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «كان الشعر عِلْم القوم، ولم يكن لهم علم أصحّ منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولَهِيَت عن الشعر وروايته، فلمّا كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّت العربُ في الأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوانٍ مدوّن، ولا كتاب مكتوب، وألْفَوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلَّ ذلك، وذهب عنهم كثيره»[2].

مما تقدم يتبيّن لنا أن الشعر العربي في الجاهلية، يعتبر من المصادر الهامة لتاريخ العرب وحضارتهم في ذلك العصر، إذ يصور لنا كثيراً من أحوال العرب الاجتماعية والدينية كما يصور لنا طباعهم وأخلاقهم، به حُفظت الأنساب وعُرفت المآثر، وفيه ذكر لأيام العرب ووقائعهم، فهو الخزان الأساسي للّغة العربية، وهو مرآة تنعكس عليها صورة حياتهم في الحرب والسلم، إنه بحق «ديوان العرب».

ويقول الجاحظ: «أمّا الشعر فحديثُ الميلاد، صغير السنّ، أوّل من نهج سبيله، وسهّل الطريق إليه: امرؤ القيس بن حُجْر ومُهلهِل بنُ ربيعة.. فإذا استظهرنا الشعرَ، وجدنا له ـ إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين ومئة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام»[3]. والأرجح أن الجاحظ يقصد بكلامه الشعر الراقي، والمعلقات ونحوها، ولا بدّ لهذا الشعر من أن يكون قد خضع لعملية النشوء والارتقاء ومحاولات أولية بدأ بها الشعراء شعرهم ثم تدرّجوا منها إلى ما وصل إلينا من الرقيّ، وهذا الذي وصل إلينا ليس سوى جزء يسير جداً من الشعر الجاهلي فقد ضاع أكثره لأنه لم يكن مكتوباً بل اعتمد على الرواية، وحتى الرواية تعرضت لحملة تشكيك وطغت عليها صفة الانتحال في رأي العديد من الأدباء وفي مقدمتهم الدكتور طه حسين.

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 570 و580 وانظر طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام 24/1.

(2) الخصائص ـ أبي الفتح عثمان بن جنّي ـ 386/1 ـ تحقيق محمد علي النجار ـ دار الهدى ـ بيروت ـ الطبعة الثانية.

(3) كتاب الحيوان ـ الجاحظ ـ 74/1.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد كان لهذا الشعر في العصر الجاهلي مكانة عالية، فهو ديوانهم كما ذكرنا وهو المصور لآمالهم وآلامهم وحياتهم من جميع جوانبها، والمصور لبيئتهم بكثبانها ووديانها وحيواناتها وطيورها، وفيه أودعوا وقائعهم ومفاخرهم وأحسابهم وأيامهم وذكرياتهم وبطولاتهم، وهو المادة الدسمة لسمرهم وأحاديثهم أثناء استراحاتهم، يتناقله الأبناء عن الآباء والأجداد وعنهم إلى الأحفاد وهكذا.. لذلك كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ووضعت الأطعمة واجتمع الناس يلعبون بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، وكانوا لا يهنئون إلاّ بغلام يولد، أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج[1].

فما عساه يكون موقف الشعراء الجاهليين من هذه العصبية القبلية التي استشرى أمرها في عصرهم إن لم يكن موقف المتحمس لها، المناضل في سبيلها؟ من الطبيعي أن يكون هذا موقفهم منها إذ هم لسان قبيلتهم الناطق بمحامدها، الذائد عن حماها، لذلك تشعر وأنت تقرأ الشعر الجاهلي، في أغلب الأحيان، أن شخصية الشاعر اندمجت في قبيلته حتى كأنه لم يَشعر لنفسه بوجود خاص، وإنك لتتبين هذا بجلاء في معلقة عمرو بن كلثوم.

ثم غدا الشعر سجلاً لعاداتهم وتقاليدهم وقيمهم الجاهلية السائدة فيما بينهم والتي كان في مقدمتها التفاخر بالأحساب والأنساب والمناصرة على هذا الأساس ولا يسألون قريبهم إن كان ظالماً أو مظلوماً كما قال الشاعر الجاهلي قُرَيْط بن أُنَيْف العنبري التميمي:

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجِذَيْه لهم ... طاروا إليه زرافاتٍ ووُحْدانا

لا يسألونَ أخاهم حين يَنْدُبُهُم ... للنائبات على ما قال بُرهانا[2]

وربما بلغ بالشاعر إخلاصه لقومه أن يتهدد الملك إذا هو حاول الإغارة على قبيلته ويخوّفه عواقب عمله بإشادته بقوتها ومنعتها وكثرة عددها وهذا ما حصل بين عمرو بن كلثوم وبين الحارث بن أبي شمّر الغساني الذي مرّ بقوم

---

(1) العمدة ـ ابن رشيق 37/1.

(2) الأدب الاسلامي ـ نايف معروف ص 90 ـ عن شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقي 22/1.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن كلثوم ولم يهتموا به فأخذ يتوعدهم فما كان من عمرو بن كلثوم إلاّ الردّ على تهديدات الملك بقوله:

ألا فـاعـلـم أَبَـيْـت الـلـعـن أنّـا ... عـلـى عَـمْـدٍ سـنـأتـي مـا نُـريـدُ
تـعـلّـم أنّ مَـحْـمَـلَـنـا ثـقـيـلٌ ... وأنّ زنـاد كـبّـتنا شـديـدُ
وأنّـا لـيـس حَـيٌّ مـن مـعـدٍّ ... يُـوازيـنـا إذا لُـبِـسَ الـحـديـدُ[1]

وكان للشعر في الجاهلية تأثير كبير حتى على الملوك، إذ يرفع من شأن صاحبه، فتقبل شفاعته عندهم ويجالسهم ولو كان به مرض، وهذا ما حصل مع الحارث بن حلِّزة اليشكري الذي كان به مرض البرص، فأمر الملك عمرو بن هند أن يُجعل بينه وبينه سبعة حُجب، فلمّا تكلم أُعجب بمنطقه، فلم يزل عمرو يقول: أدنوه أدنوه حتى أمر بطرح الستر وأقعده معه قريباً منه لإعجابه بشعره وهو قصيدته المعلقة:

آذَنَـتْنا بِـبَـيْـنِهـا أسْـمـاءُ ... رُبّ ثـاوٍ يُـمَـلُّ مـنـه الـثـواءُ[2]

قيل في الشعر: «إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل». وذلك أن الشعر لجلالته كان يرفع من قدر الخامل إذ مُدح به، مثل ما يضع من قدر الشريف بهجائه بما ليس فيه، فممّن رفعه ما قيل من الشعر بعد الخمول، المحلّق، وقد كان فقيراً وعنده بنات، فنصحته زوجته وكانت امرأة عاقلة بأن يسبق الناس ويولم للأعشى القادم إلى مكة، ولم يكن عندهم إلاّ لَقْحَةٌ واحدة يعيشون بها، فسبق إليه المحلّق، وأنزله ونحر له ولرفاقه وقدم إليهم الشراب، فلما أخذت منهم الكأس سأله عن حاله وعياله، فعرف البؤس في كلامه وذكر البنات، فقال الأعشى: كُفيت أمرهنّ. وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته:

أرقـتُ ومـا هـذا الـسـهـاد الـمـؤرِّقُ ... وما بي من سُقْمٍ وما بيَ معشقُ

وقال فيها:

---

(1) الأغاني 58/11.

(2) الأغاني 42/11 وانظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ـ الأنباري ـ ص 431 ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر 1969.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لعمري لقد لاحت عيون كثيرةٌ إلى ضوء نارٍ باليفاعِ تحرَّقُ
تُشبُّ لمقرورَيْن يصطليانها وبات على النار النّدى والمحلَّق

فما أتم القصيدة إلاّ والناس ينسلون إلى المحلّق يهنئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته، لمكان شعر الأعشى، فلم تُمْسِ منهنّ واحدة إلاّ في عصمة رجل أفضلَ من أبيها ألف ضعف[1].

وكذلك بنو أنف الناقة، كانوا يخجلون من هذا الاسم، حتى أنّ الرجل منهم يسأل: ممّن هو؟ فيقول: من بني قريع، فيتجاوز جعفراً أنف الناقة بن قريع بن عوف.. إلى أن نزل الحطيئة، الشاعر المعروف، في ضيافة أحدهم، فأكرمه وأحسن إليه، فقال فيه شعراً منه:

قومٌ هم الأنف، والأذنابُ غيرهم ومَن يساوي بأنف الناقة الذَّنَبَا؟

فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدّون به أصواتهم في جَهَارة[2].

وممّن وضعه ما قيل فيه من الشعر، وحطّ من قدره وسقط عن رتبته، الربيع بن زياد، وكان من ندماء النعمان بن المنذر، وكان فحّاشاً بذيّاً سبّاباً لا يسلم منه أحدٌ ممّن يفد على النعمان، فرُمِيَ بلبيد وهو غلام مراهق فنافسه وقد وضع الطعام بين يدي النعمان، وتقدم الربيع وحده ليأكل معه على عادته، فقام لبيد فقال مرتجلا:

يا رُبَّ هيْجَا هي خيرٌ من دَعَهْ نحن بني أمِّ البنينَ الأربعه
ونحن خير عامر بن صَعْصَعهالمطعمون الجفنة المدعدعه
والضاربون الهام تحت الخيضعه مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه

فقال النعمان: ولمه؟ فقال: إنّ استه من بَرَصٍ مُلَمّعَهْ.

فقال النعمان: وما علينا من ذلك؟ فقال: وإنّه يولج فيها إصْبَعَهْ.

يولجها حتى يواري أشْجَعَهْ كأنّما يطلب شيئاً أوْدَعَهْ

---

(1) العمدة ـ ابن رشيق 48/1 وانظر الأغاني 113/9.

(2) البيان والتبيين ـ الجاحظ 577/3 وانظر العمدة ـ ابن رشيق 50/1.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرفع النعمان يده عن الطعام، فحجبه بعد ذلك وسقطت منزلته[1].

وذكر الجاحظ قائلاً: وبنو ضرار، أحد بني ثعلبة بن سعد، لما مات أبوهم وترك الثلاثة الشعراء صبياناً وَهم: شماخ، ومزرد، وجزء، أرادت أمّهم وهي أم أوَس أن تتزوج رجلاً يسمّى أوساً، وكان أوس هذا شاعراً، فلما رآه بنو ضرار بفناء أمهم للخطبة، تناول شماخ حبل الدلو ثم متح وهو يقول:

أمُّ أويسٍ نكحت أويسا. وجاء مزرد فتناول الحبل فقال: أعجبها حذارةً وكيسا.

وجاء جزء فتناول الحبل فقال: أصدقَ منها لَجَبَةً وتيسا. فلما سمع أويس رجز الصبيان بها، هرب وتركها (*).

وهكذا نرى أن الشعر كان سبباً في هرب أوس وبذلك خسرت أمّ أوس العريس.

والشعر هو الذي أحطّ من كرامة الربيع عند النعمان، وهل أهلك: عنزة وجرماً وعكلاً وسلول وباهلة وغنياً إلا الهجاء؟ وهذه قبائل فيها فضل كثير، وبعض النقص، فمحق ذلك الفضل كلّه هجاء الشعراء[2].

كان الشعر في الجاهلية يرفع الوضعاء ويخفض ذوي الرفعة، وهذا يدل على الدور الخطير الذي كان يلعبه الشعر عند أولئك القوم، وكانت القبائل تحفظ أشعار شعرائها، ويرويها أبناؤها إلى الأحفاد والأجيال التالية، والعرب أمة أمّية تعتمد على الذاكرة لا على التدوين، والشعر أسهل في الحافظة وأعلق في الذهن. لذلك كانوا يخافون لسان الشاعر ويتحامون هجاءه، وقد بلغ من خوفهم من الهجاء خشية أن يبقى ذكره في الأعقاب، ويُسب به الأحياء والأموات.

لم تكن وظيفة الشعر عند عرب الجاهلية، محصورة بهذه النواحي فحسب، بل إن الشعر كان ديوانهم، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً لذلك يمكننا أن

---

(1) العمدة ـ ابن رشيق 51/1.

(2) البيان والتبيين ـ الجاحظ 576/3 (بتصرف).

(*) اللَّجَبَة: النعجة التي قلّ لبنُها ـ متح: جذب رشاء الدلو.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نتعرف إلى البيئة الجاهلية من جميع نواحيها وذلك من خلال الأدب الجاهلي، وإننا نلاحظ بوضوح تام، هيمنة الروح القبلية، والتعصب القبلي، ومناصرة الأخ منهم ظالماً أو مظلوماً:

لا يسألون أخاهم حين يندُبهم في النائبات على ما قال برهانا

تلك الحياة القبلية التي تدفع الشاعر إلى التفاخر بأبناء قبيلته، والبحث والتنقيب عن مثالب القبيلة المعادية وكثيراً ما يخترع هو مثالب يوصمها بها وتنتشر في ربوع الجزيرة العربية، وبذلك يحط من كرامة الناس ظلما وبهتاناً.

ولم يكن التفاخر والهجاء عندهم يقف عند حدّ، إذ ان الشاعر لا يرعوي عن أي كلام بذيء يقذفه دون أي حرج ودون الوقوف عند حد الحرمات وكرامات النساء، وأنّى له أن يفكر بذلك وهو الذي عاش في بيئة، دأبها الإغارة على القبائل الأخرى والسلب والنهب وسبي نسائهم وأولادهم، وتتربص بهم القبيلة الأخرى فتفعل ما فعلوا، بل هم إذا لم يجدوا عدوّاً من غيرهم قاتلوا أنفسهم، ولعلّ خير ما يمثل ذلك قول القطامي:

وكنّ إذا أغَرْن على قَبيلٍ فَأعْوَزَهُنّ نَهْبٌ حيث كانا

* * *

وأحياناً على بكرِ أخينا إذا لم نجد إلاّ أخانا

إذاً ليس هناك من أمن ولا استقرار، والجميع يعيش في حالة استنفار، فما السبيل للإنقاذ من هذه الحياة الصعبة، لقد أدركهم الله بالإسلام، وانتشر الدين الجديد في ربوع الجزيرة العربية. فكيف أصبحت حال الشعر والشعراء في ظل المجتمع الجديد؟ وما هي مكانة الشعر في الإسلام؟

ب ـ مكانة الشعر في الإسلام

1 ـ في القرآن الكريم

مما تقدم نلاحظ أن رسالة الشعر، قبل الإسلام، قد انحرفت في غالب أمرها عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية المهذبة والخلق القويم الذي يستقيم به أمر المجتمع؛ إذ كان يهتك الحرمات ويثير العصبية ويحرض الناس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الاقتتال والتناحر، فكان بذلك من معاول الهدم وأسباب الدمار في البيئة الجاهلية. ثم جاء الإسلام بدعوة الاخاء والمساواة، والعفة في القول، فحرّم على المسلم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ودعا إلى الكف عن القول والفعل الذي يؤذي المجتمع.

لقد أصبح عند المسلم منهجاً ودستوراً ينظّم له جميع أمور حياته، وتلك التعاليم مأخوذة من القرآن الكريم وسنّة الرسول العظيم، فما عسى الشاعر أن يقول في ظل الدين الجديد؟ وما هو موقف القرآن من الشعر والشعراء؟

إذا تتبعنا ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي جاءت على ذكر الشعر والشعراء نجدها كما يلي:

﴿وما علّمناه الشِّعر وما ينبغي له إن هو إلاّ ذِكرٌ وقرآن مبين﴾[1].

﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾[2].

﴿ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾[3].

﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾[4].

﴿وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون﴾[5].

﴿والشعراءُ يتّبِعُهُمُ الغاوون، ألم تر أنّهم في كل وادٍ يهيمون، وأنّهم يقولون ما لا يفعلون، إلاّ الذين آمنوا...﴾[6]... الخ الآية.

فالملاحظ أن لفظة «الشِّعر» وردت مرة واحدة، وكلمة «شاعر» وردت أربع مرات، ولفظة «الشعراء» مرة واحدة، فماذا نفهم من تلك الآيات؟

---

(1) سورة يس ـ الآية 69.
(2) سورة الأنبياء ـ الآية 5.
(3) سورة الصافات ـ الآية 36.
(4) سورة الطور ـ الآية 30.
(5) سورة الحاقة ـ الآية 41.
(6) سورة الشعراء ـ الآية 224.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورد في تفسير القرآن العظيم لابن كثير ما يلي: «وقوله تبارك وتعالى: ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغي له**﴾. يقول عزّ وجلّ مخبراً عن نبيه محمد ﷺ أنه ما علّمه الشعر، ﴿**وما ينبغي له**﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلّته ﴿**إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين**﴾ أي ما هذا الذي علمناه ﴿**إلا ذكر وقرآن مبين**﴾ أي بيّن واضح جليّ لمن تأمله وتدبّره.

ولعلّ ما يبدو لنا أن مشركي قريش حين أخذوا يستمعون إلى الآيات المنزلات أصابهم نوع من الذهول، فأصبحوا في حيرة من أمرهم، بماذا يصفون هذا الكلام، قالوا إنه نوع من الشعر فتولّى الله تعالى الردّ على مزاعمهم، توضيحاً وتخليصاً لهم ممّا هم فيه من الارتباك والضلال فيؤكد لهم: ﴿**وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين**﴾[1].

وبالنسبة للآية الثانية: ﴿**بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر**﴾ هذا إخبار عن تعنّت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحيرتهم فيه وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحراً وتارة يجعلونه شعراً وتارة يجعلونه أضغاث أحلام وتارة يجعلونه مفترى، وهم هنا يقصدون في القرآن أنه أخلاط كأخلاط الأحلام وأباطيل لا حقيقة لها اختلقها محمد ﷺ من تلقاء نفسه والذي جاء به شعر يخيّل ما لا حقيقة له[2].

وفي الآية الثالثة: ﴿**ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون**﴾ أي يقول الكافرون أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون[3].

وقوله في الآية الرابعة: ﴿**أم يقولون شاعر نتربّص به رَيْب المَنون**﴾. من المستحسن أن نذكر الآية السابقة والآية اللاحقة لهذه الآية لتكون الصورة أوضح، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿**فذكّرْ فما أنت بنعمة ربّك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعرٌ نتربّصُ به رَيْبَ المَنون * قل تربّصوا فإنّي معكم**

---

(1) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير 578/3 ـ دار المعرفة ـ بيروت 1982.

(2) صفوة البيان لمعاني القرآن ـ حسنين محمد مخلوف ـ ص 412 ـ الطبعة الثالثة ـ الكويت 1987 ـ وتفسير ابن كثير 173/3.

(3) تفسير ابن كثير 6/4.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من المتربصين *﴾. يقول الله تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلّغ رسالته إلى عباده، ثم ينفي عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور من أنه كاهن أو مجنون، أو شاعر يتربصون به الموت وقوارع الدهر فيستريحون منه. قل: انتظروا فإنّي منتظر معكم وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة في الدنيا والآخرة[1].

وجاء في الآية الخامسة: ﴿**وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون**﴾ وما يليها: ﴿**ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تذكّرون * تنزيل من ربّ العالمين ***﴾». «قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أُسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة (وهي التي تشتمل على هذه الآيات) فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قلت هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ: إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون. فقلت: كاهن. فقرأ: ولا بقول كاهن قليلاً ما تذّكرون. تنزيل من ربّ العالمين.. إلى آخر السورة. قال عمر: فوقع الاسلام في قلبي كلّ موقع. فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثّرة في هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2].

أما الآية السادسة، وقد جاء فيها: ﴿**والشعراء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون * ألم تر أنّهم في كل وادٍ يهيمون * وأنّهم يقولون ما لا يفعلون * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعدما ظُلِموا وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون**﴾. والمقصود من هذه الآيات، الشعراء الكفار الذين كانوا يهجون الرسول ﷺ ويقولون فيه الكذب والباطل. وكذلك من كان على شاكلتهم من الشعراء الذين يخوضون في الباطل ويكذبون ويمزقون الأعراض، وينشرون المثالب ويقدحون في الأنساب ويفرطون في المدْح والقدْح. وقد ورد أنه لما نزلت هذه الآيات جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون. فتلا النبي ﷺ: إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قال: أنتم. وذكروا الله كثيراً. قال: أنتم.

---

(1) ابن كثير 243/4 وصفوة البيان ص 672.

(2) ابن كثير 417/4.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانتصروا من بعد ما ظلموا. قال: أنتم. ويضيف ابن عبد ربه الأندلسي: فأرخص الله للشعراء بهذه الآية في هجائهم لمن تعرّض لهم[1].

وواضح مما تقدم أن القرآن الكريم يحكي على ألسنة المشركين ما كانوا يقولونه عن الرسول ﷺ: شاعر، كاهن، مجنون، فهو يدافع عنه ويدحض آرائهم بالحجّة والبرهان، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى تنزيل من رب العالمين.

ويستفاد مما تقدم أيضاً أن القرآن الكريم لم يحرّم نظم الشعر كما يزعم البعض، ولم يهاجم الشعراء بصفة عامة، وإنما يقصد أولئك المشركين الذين يهاجون رسول الله وينهشون في أعراض الناس، ويتبعون مزاجهم وهواهم، فيحرّكون عواطف السامعين ومشاعرهم بما يملكون من أساليب الإثارة والتشويق بأكاذبيهم، ويعطّلون الاحتكام إلى العقل بضلالاتهم، فينساق وراءهم أهل الضلال من عامة الناس وخاصتهم.

أمّا الشعراء المؤمنون الملتزمون بأوامر الله ونواهيه، فقد استثناهم ربّ العالمين، ولا ضير عليهم شريطة أن يظلّ شعرهم في دائرة المباح من القول وفي حدود الحلال من الكلام.

ولا شك في أن موقف الرسول ﷺ من الشعر والشعراء هو تجسيد لموقف كتاب الله. وهذا ما سنوضّحه في الفصول التالية.

2 ـ موقف الرسول ﷺ من الشعر والشعراء

سبق أن ذكرنا أن الشعر في العصر الجاهلي كان ديوان العرب، ومجمَع مكارمهم ومنبع مفاخرهم ومعرِضَ فصاحتهم، ولما جاء النبي ﷺ بالقرآن الكريم، يدعو إلى الإسلام، أحدث هزة عنيفة في المجتمع العربي من الناحية الدينيّة والسياسية والاجتماعية، وكان الشعر من تلك المظاهر التي تأثرت بالإسلام، فإلى أيّ مدىً كان هذا التأثير؟ وما هو موقف صاحب الدعوة منه؟

---

(1) صفوة البيان ـ ص 479 ـ ابن كثير 354/3 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 294/5.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد اتخذ الرسول ﷺ موقفاً من الشعر والشعراء. ينسجم تمام الانسجام مع تعاليم القرآن، وقد سبق وذكرنا موقف القرآن من الشعر والشعراء، ونُذكّر بالآية الكريمة: **﴿والشعراء يتّبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدِ ما ظُلموا، وسيعلمُ الذين ظَلموا أيَّ منقلب ينقلبون﴾**[1].

فالشعراء معروفون منذ القدم بالغلوّ والكذب ومجاوزة الحقّ في مديحهم وهجائهم وهؤلاء هم المقصودون، ثم إن القرآن الكريم يستثني من الشعراء: **﴿إلاّ الذين آمنوا﴾** و... الخ الآية. فنجد أن القرآن الكريم ميّز بين الشعراء الغواة والشعراء الصالحين، أما رسول الله ﷺ فقد رُوي عنه أنه ذمّ الشعر ونهى عن رواية بعضه في مجالات معيّنة، وأنه أبدى إعجابه بالشعر، وأقبل على الشعراء وشجّعهم واستنشدهم في مجالات كثيرة.

أ ـ في حالة الذمّ

رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال: «لأن يمتلىء جوْفُ أحدكم قَيْحاً حتى يَرِيَهُ خير له أن يمتلىء شعراً». أي لأن يمتلىء جوف الإنسان قيحاً حتى يأكله خير له من أن يمتلىء شعراً، والذي يقصده الرسول إنما هو على من غلب الشعرُ على قلبه، وملك نفسَه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن[2].

ورُوي عنه أيضاً قوله ﷺ: «من قال في الاسلام هجاءً مقذعاً فلسانه هَدَر»[3].
وعن محمد بن سلمة قال: كنّا يوماً عند رسول الله ﷺ فقال: يا حسّان أنشدني من شعر الجاهلية. فأنشده قصيدة الأعشى التي هجا بها علقمة بن علاثة ومدح عامر بن الطفيل. فقال: يا حسان لا تعد تنشدني هذه القصيدة. فقال: يا رسول الله تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر. فقال: إنّ قيصر سأل أبا سفيان عني فتناول مني،

---

(1) سورة الشعراء ـ الآية 224 وما بعدها.
(2) العمدة ـ ابن رشيق 31/1.
(3) العمدة ـ ابن رشيق 170/2.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسأل علقمة فأحسن القول، فإنَّ أشْكَرَ الناس للناس أشكرهم لله تعالى[1].

وعن يحيى بن محمد قال: كان أميّة بن أبي الصلت يحرّض قريشاً بعد وقعة بدر، وكان يرثي من قُتل من قريش في وقعة بدر، فمن ذلك قوله:

مـــاذا بـــبـــدر والـــعَـــقَـــنْ... قَـــلِ مِـــنْ مَـــرَازِبَـــةٍ جـــحـــاجـــح[*]

وقال: وهي قصيدة نهى رسول الله ﷺ عن رواياتها[2].

من خلال هذه المواقف الآنفة الذكر يتبيّن لنا أن الرسول ﷺ قد نهى عن الانشغال التام بالشعر وروايته حيث أنه استعمل لفظة: يمتلىء، والامتلاء هو أن يُشغِلَ المالىءُ للشيء جميعَ أجزائه حتى لا يكون فيه فضل لغيره. وهكذا ينشغل الإنسانُ بالشعر وهذا ما يصدّه عن ذكر الله، إذ المفروض أن يكون هناك مجال للذكر وتدارسِ القرآن وتعلّم الشرائع والأحكام. وعليه يمكن القول: إنّ المكروه من رواية الشعر هو الانشغال به تماماً عمّا سواه، وكأنّ الرسول ﷺ يجيز روايته لمن يأخذ منه قسطاً، ويكون لديه متسع من الوقت لذكر الله وللتفقه بعلوم الدين والقرآن.

أمّا في الحديث الثاني، فإنّ كلام الرسول واضح تماماً إذ هو ينهى عن استغلال الشعر واتخاذه أداة للهجاء الفاحش والنيل من أعراض المسلمين، فقد أصدر حكمه على هذا النوع من الشعر، بقطع لسان صاحبه.

وبالنسبة إلى طلب النبي ﷺ من حسان عدم إنشاده قصيدة الأعشى التي هجا بها علقمة فهذا يدلّ على الخلق النبيل الذي كان يتمتع به الرسول، فهذا نوع من الوفاء لعلقمة الذي أثنى على الرسول عند قيصر، وهو مبادلة الإحسان بالإحسان، وقد قال رسول الله: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، وقد وصفه الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿**وإنّك لعلى خلق عظيم**﴾.

---

(1) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني 503/2 ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1328هـ.

(*) العقنقل: كثيب رمل بدر. مرازبة: الفرسان الشجعان (فارسي معرب) ـ الجحاجح: جمع جَحْجَحْ: السيد المسارع في المكارم.

(2) الأغاني 122/4.